رواية

حرّاس الحزن

أمير تاج السرّ

نوفل

حرّاس الحزن

@neverstoplearningN

رواية

حرّاس الحزن

أمير تاج السرّ

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2022 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2022
بناية أنطوان، الشارع 402، المكلّس، لبنان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **© ant_tom_travel / Alamy Stock Photo**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**
طباعة: **المطبعة العربية**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-962-1
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-976-8

في هذا النصّ لا تبحث عن الحزن.
دع الحزن يبحث عنك.

1

قبل يوم واحد من السفر إلى بلدة «خور عاج»، الذي سنشقّ فيه صحراء «العتمور» القاحلة، انشغلت بثلاثة أشياء بدت لي هامّة جدّاً، ولا بدّ من الانشغال بها:

أولاً، أن أتحاوم ساعتين أو ثلاث ساعات في حيّ المستشفى القديم، ربّما ألمح مصادفة سميّة رمضان، أرملة ضابط الشرطة الذي لم أرد أن أحفظ اسمه أبداً، فأسمّيه مرّة حمزة، ومرّة بلال، ومرّة شاهد، ومرّة لا أسمّيه بأيّ اسم، وكان قد مات منذ حوالي عامين في حادث شجار بين قبيلتين بدويتين في أحد أطراف العاصمة، ذهب للمشاركة في فضّه كما ذُكر في بيان نعيه الرسمي فطعنه أحد المتشاجرين بسكّين أثناء حمّى قتالية عنيفة، لم يرد لها القاتل أن تتوقف. قيل إنّ الضابط سقط، والقاتل سقط فوقه، ونساء من كلتا القبيلتين زغردن احتفاءً بسقوط ممثّل الحكومة.

كنت أحبّ سميّة، جارتنا القديمة في حيّ المستشفى، قبل أن يعثر عليها ضابط الشرطة الميت. كان ذلك النوع من الحبّ الذي يظلّ حبّاً فقط من دون أيّ رغبة في هدمه بارتباطات أخرى سخيفة يسبّبها الزواج، مثل المشاجرات البيتية، وطقوس الحمل والولادة،

والشيخوخة المبكرة، والترهّل. لم أذهب إلى أهلها لأطلبها قطّ، ولا أزعجتها بالبوح أبداً، كنت أحبّها وأودّ أن أراها فقط، إلى أن توقفت عن تلك الرغبة الحالمة، أو توقفت هي عنّي، أيّام حياتها مع الشرطي التي استمرّت عاماً واحداً فقط، ثمّ سرعان ما عادت بعد أن تحرّرت بموته. وأذكر أنّني ذهبت للعزاء، وأنّني ظللت ما بعد العزاء أذهب قرب بيت أهلها كلّما سنحت فرصة، إلى أن رأيتها في أحد الأيّام، وكانت هي نفسها، لا زيادة ولا نقصان، ولا حتى تغيّر في نظرة العين التي أحفظ تفاصيلها جيّداً. كانت ترتدي ثياباً بيتية باهتة من قماش الكستور، تضع قليلاً من الكحل على عينيها، وما يزال خاتم زواجها الذهبي الرقيق موجوداً في الإصبع الرابع من يدها اليسرى. رأتني، وأرادت أن تبتسم، لكنّ امرأة مسنّة تبدو عمّة أو خالة أو ربّما جدّة ظهرت فجأة، ومحت ابتسامتها، أو بالأحرى محت مشروع ابتسامتها. ظللت أتبعها من زقاق إلى زقاق، والخالة أو العمّة أو الجدّة، كما هي، في المسافة بين وجهي ووجهها حبّي الصامت، واحتفاؤها بحبّي الصامت، عدم إزعاجي لها، وعدم انزعاجها من عدم إزعاجي لها، إلى أن دخلنا بيتاً في حيّ مجاور، فيه نواح ومشاعر كئيبة، وأصوات دموع ومخاط، تنزّ عبر الباب المفتوح. كان بيت عزاء بلا شك، وساعتها فقط، فهمت لماذا كان الثوب بيتياً باهتاً والجمال الهستيري لبطلة قصّتي الصامتة ليس مؤطّراً كما يجب. ابتعدت بسرعة عن غليان الحزن، لكنّي لم أنقطع عن الحضور إلى الحيّ كلما سنحت فرصة.

الأمر الثاني الذي شغلني هو التأكّد من أنّ الشجرة التي غرستها في حوش المدرسة الثانوية قبل سبعة عشر عاماً أو أكثر ما تزال في مكانها، وتحظى بعناية جيّدة. وهذا إجراء سنوي، تعوّدت عليه منذ تركت المدرسة، بالرغم من أنّه ليس مطلوباً، ولا تلك الشجرة التي غرستها أثناء حملة للتشجير قادها مدير المدرسة الفظّ آنذاك

قد سُجّلت باسمي، ولا هي شجرة مثمرة. إنّها مجرّد شجرة تمنح الظلّ على استحياء، وأيضاً تمنح الورق المتساقط الذي يسهم في اتّساخ المكان. وبالرغم من أنّني تأكّدت من أنّها لا تزال موجودة منذ شهرين فقط، وأنّ تربتها ليّنة وتسقى باستمرار، إلّا أنّ سفري الذي قد يمتدّ كثيراً، إضافة إلى ذلك الحلم القاسي الذي حلمته قبل أيّام، ورأيتها فيه مقطوعة وملقاة في صحراء بلا قلب، جعلاني أفكّر في التأكّد مرّة أخرى.

أمّا الأمر الثالث، فكان رغبة لم تأت فجأة، بل بعد نضال طويل مع الركض في سكك الحياة: أن أستلقي على ظهري وأحلم مستيقظاً لساعات طويلة. لا أدري ما هي الأحلام التي سأقوم باستدعائها، وإدراجها في تلك الاستلقاءة، لكن قطعاً لديّ أحلام بعضها طيّب وبعضها آثم، وربّما مريض أيضاً...

لن أفكّر في بلدة خور عاج، ولن أحاول تخيّل معمارها أو ناسها أو وسائل الضجر والترفيه فيها، ولديّ فكرة عن تلك القرى البعيدة التي تحاول السلطات دائماً أن تسمّيها مدناً، من دون وجه حق، والتي مهما أرسلت لها من موظفين إداريين، وممرّضين، وبعثات تعليم، وشيئاً من سمات المجتمع المتحضّر، تظلّ قرى بعيدة.

تخلّصت بمشقّة من أشخاص لا أعرفهم أصلاً، جاؤوا إلى بيتي فجأة في بداية الصباح. كنت مستغرباً فعلاً، أدقق في الوجوه والأصوات، وطريقة رشف الشاي والقهوة، والنحنحة، والذهاب إلى الحمّام والعودة منه، الذي يكثر عادة في الجلسات الطويلة المملّة، وحتى النكات القذرة والأقوال المأثورة التي تطلق بين حين وآخر، ولا أكاد أتذكّر شيئاً منها.

هذا الطويل، المنتفخ الوجه الذي يجلس في وسط الصالة، قد يكون لاعب كرة أو حكماً رياضياً سابقاً، لأنّ الأمجاد لا تُحكى بهذا السخاء، ولوم الحكومات لا يتوفّر بمرارة هكذا، إلّا في ألسنة السابقين. كان يسبّ الزمن، ويسبّ العتمة التي تعقب الضوء، ويسبّ الضوء نفسه، لأنّه ينحسر عن الأفذاذ، ويركض إلى السفلة. في الحقيقة، لم يأت على سيرة الكرة أو الملاعب قطّ، لكن بالتدقيق في ساقيه المكشوفتين بسبب انحسار الثوب الذي يرتديه، وما تحويانه من وسخ متراكم، وآثار جروح سطحية وعميقة، إضافة إلى وشم صغير على ساقه اليمنى، يمثّل كأساً مقلوبة، أيقنت أنّه لاعب كرة سابق.

قلت من دون تفكير، وأنا أحسّ بأنّني سأختنق:

– لا تحزن يا مبروك، يوم لك ويوم عليك.

قال وشبه دمعة تنتصب في عينه اليسرى:

– جيّد أنّ هناك من يتذكّر الكابتن مبروك.

كان ردّه صدمة لي، فقد أكّد أنّني أعرفه فعلاً، لكن لماذا لا أتعرّف إليه الآن؟ لماذا لا يوجد في ذهني هدف ذهبي واحد أحرزه ذات يوم في مرمى خصمه؟ أو مشية متغطرسة مشى بها في حيّنا وسط التلاميذ المنبهرين؟ أو جملة غزل هابطة المستوى أشعلها في وجه فتاة وأصبحت من عيون جمل الغزل عند الشباب؟

لم أفكّر كثيراً، كانت ضجّة الغرباء تزداد من حولي، واحتلالهم للأماكن المحدودة في بيتي الصغير، ذي الغرفتين والصالة، والحوش الخلفي الواسع الذي لا يتناسب مع حجم البيت، يضايقني جدّاً. أودّ أن أفعل ما يضجرهم، ما يهلك ضجّتهم، ما يلقي بهم بعيداً، ولا أعثر على ثغرة واحدة. كانوا يتكاثفون من حولي، يعدّون الشاي والعصير، وسندوتشات الجبن، والبيض المقليّ والمسلوق، ويضحكون ويبكون

ويحكون ويغنّون، وأحياناً يرقصون، من دون أن يفكّروا في المغادرة، أو في منحي فرصة لرسم تقطيبة وجه سطحية حتى.

هذا الرجل مؤكّد صحفي، أقصد القصير، الداكن البشرة، الذي لم ينتبه لبقعة الدهن العريضة على سرواله الرمادي من الخلف، لا لأنّه لا يريد أن ينتبه كما أعتقد، ولكن لأن لا أحد نبّهه. كان يرتدي قميصاً أبيض تفوح منه رائحة التخزين، ويضع رباط عنق أخضر، ولا أذكر أنّني شاهدت رباط عنق أخضر من قبل قطّ، كان صوته متبجّحاً، كئيباً وهو يتحدّث عن الرئيس القائد، وطلائع الكشافة، ودكّ الحصون القديمة، والإجراءات المتّبعة، وزحمة المتراصّين حول الجامع الكبير، للحصول على الصدقات بلا وجه حق، وحين سأله أحد الحاضرين عن مصير آخر إغاثة دولية وصلت إلى البلاد، وفي جيب من دخلت، ردّ بتشنّج:

– البلاد ليست مغاثة يا سيّد.. ليست بحاجة إلى إغاثة أصلاً. في زمن القيادة الرشيدة، هناك فساد سينتهي قريباً. انتبه لحديثك يا سيّد.

ويبدو أنّ السائل الذي كان يشبه عدداً كبيراً من الناس صادفتهم في حياتي، انتبه لحديثه بالفعل، فلم يخض في فقرة جديدة، اكتفى بإخراج قرش قديم من جيبه، أخذ يلقيه في الهواء ويتلقّفه، ويردّد صورة.. كتابة.. صورة.. كتابة. تأكّدت أنّه صحفي، راقبت عينيه جيّداً، واستخرجت من مساحتهما الضيّقة الكثير من الصور التافهة. هذا الرجل لا يستطيع أن يخلد للنوم بسهولة، مؤكّد يدخّن سجائر البحاري، ويشتري العرق من عند أم دفان، في أحطّ أزقة العاصمة، ويجوب الشوارع ليلاً بحثاً عن رجال الأمن المتسلطين، وحاملي الرتب الكبيرة في الجيش، ليربّت أكتافهم، ويتمنّى لهم ليلة

سعيدة، مؤكّد ليست لديه امرأة تملأ قلبه بالرغم من عشرات قد يكون أقنعهنّ بتذوّقه. أيّاً كان لا يهمّني أمره، ولن أنشغل به.

جلت بعينيّ في الصالة المكتظة، ومددت رقبتي إلى الغرفة المفتوحة، وفيها اكتظاظ أيضاً، خُيّل إليّ أنّني أشمّ رائحة امرأة، لا أقصد عطراً نسائياً مدلوقاً على جسد امرأة، ولكن رائحة ما، لا أعرف كيف أصفها.

هل جاؤوا بامرأة إلى بيتي ولم أنتبه إلى ذلك؟ تحرّكت قليلاً، وقفت عند باب الحجرة، لم تكن ثمّة امرأة، لكن رأيت عدداً من الغرباء بينهم صبيّ ممتدّ الرموش، ومكحّل العينين، يرتدي سروالاً كاكياً قصيراً وقميصاً أحمر مكتوباً عليه «إلى اللقاء يا حبّ»، ويمسك بطبل مشدود محاولاً أن يغنّي بشجن دون أن ينجح في ذلك،كان ثمّة ضياع في صوته. ثمّة حالة نادرة من انعدام النغمة الذكيّة جليّة في محاولته الغناء. هذا الولد بالذات هزّني وجوده في بيتي، لا أدري لما اعتبرته جرحاً منسيّاً حدث لبعض الناس وأمعنوا في نسيانه، ربّما هرب من حصّة الرياضيات في المدرسة، ربّما تحرّش به مدرّس الجغرافيا أو التاريخ، ربّما أعطاه الطريق أكثر ممّا ينبغي من عدم الألفة فغدا بلا ألفة. تركته وعدت إلى مكاني، وانشغلت بآخرين. كنت أتمنّى أن تسقط منّي دمعة، لكنّ الدموع لم تعد تحبّني منذ زمن بعيد... في الواقع، الدموع تكرهني جدّاً.

هذا العجوز الذي يجلس على مقعدي المفضّل، المقعد البلاستيكي المكسور الذي يتأرجح ظهره باستمرار، يبدو مريضاً نفسياً أو متّهماً قديماً في قضيّة قتل نجا من السجن بأعجوبة، لقد ظلّ يتأرجح بالمقعد لأكثر من تسع ساعات من دون أن يفكّر في احتمالات أخرى للنشوة، مثل تدخين سيجارة، أو تخيّل صدر فتاة يانعة، أو إضافة محتوى مبتكر للجلسة العامرة من حوله. كان مألوفاً

بالنسبة إليّ، كأنّه عمّي إبراهيم المتوفّى منذ أربعة عشر عاماً، أو نسخة متقدّمة في السنّ من ابن عمّتي منصور الذي يحارب في جبهة قتالية ما، أو لعلّه الخفير الملثّم الذي كان يحرس بوّابة بيت مهجور في حيّ المستشفى سنوات طويلة، من دون أن يتعرّف إلى أحد أو يتعرّف أحد إليه. هذا لم أدقق في تفاصيله كثيراً، فقد كانت تفاصيل روتينية، معروفة، تجاعيد، أخاديد، حفر، دهون ذائبة، عينان منطفئتان، ملابس بلدية، شهيق، زفير، وجع مفاصل... إلخ، لكنّه لفت نظري بشدّة حين صرخ فجأة، وكنّا في منتصف الساعة العاشرة من بداية الجلسة: «يا صاحب البيت».

تلفّت الجميع يبحثون بينهم عن صاحب البيت، وتلفّتُّ معهم. لم أكن أتوقع أن أكون صاحب البيت الذي تعنيه صرخته، لكن مع الأسف كنت، أضاف:

– نعم أنت، علي صلاح، ضابط الحكومات المحلية، الذي تمّ نقله إلى منطقة خور عاج، ونحن هنا لوداعه، في هذا الحفل الصغير.

بهرني. أقسم أنّني انبهرت. وانتبهت لأول مرّة إلى أنّني في حفلٍ مُقام لوداعي ولم أكن أعرف، وحقيقةً ليس من الضرورة أن أعرف، أو أن أكون ملمّاً بكلّ من حضره. ففي مثل هذه الحفلات، تنبع الفكرة عادة من أحد المعارف أو الأصدقاء الذي يقوم بتجميع بعض الناس من أجل منح الحفل ضجّة تجعله لا يُنسى. مؤكّد أنّني لا أعرف هؤلاء الناس، والصديق الذي جمعهم قد يكون في ركن ما في البيت، أو في الحوش الخلفي الواسع، يدخّن سيجارة محرّمة، أو لعلّه تأخّر لأيّ سبب ولم يحضر، وحضر الآخرون الذين تمّت دعوتهم.

– هل أعرفك؟

قلت بنبرة هادئة، لكن فيها ذعر. مهما يكن، فهناك غرباء يحتلّون بيتي، ولا يبدو أنّ لديهم نيّة في المغادرة.

ردّ:

– مؤكّد لا تعرفني، أمثالك لا يمرّون عليّ أبداً. وإن مرّوا فلعدّة لحظات فقط.

هل شاركت من قبل في تظاهرة أيّام دراستك الثانوية أو الجامعية؟

– لا.

– هل انضممت إلى حزب سياسي، أو تطرّفت دينياً أو حككت أذنك بقعر سلاح ناري من قبل؟

– لا.

– هل كانت تعجبك الشيوعية ملاك التي ذاع صيتها في أيّام حكم العسكر الأول، وأصبح صدرها الضامر من صور الجمال الموحية؟

– لم أسمع بها.

– هل أنت مطّلع على الميثاق الدائم للحرّيات، واللائحة الأولية لتكوين النقابات العامّة؟

– أبداً.

– هل بصقت بقرف حين مرّ قربك مرّة موكب من سيّارات المرسيدس السوداء الفاخرة؟

– لا، أبداً.

– هل تحفظ مقاطع من نشيد: الدم.. الدم.

– أبداً.

– جرّبت الرسم أو الشعر من قبل؟

– على الإطلاق.

– إذن لا تعرفني.

ضحك. ضحكته صدئة. كأنّها أطلقت منذ سنوات طويلة، وظلّت عالقة بحلقه، لم تتحرّر سوى اليوم فقط، ضحك مرّة أخرى.

هذه أيضاً كانت صدئة، وفيها رائحة ثوم، أو ربّما رائحة قبلة امرأة من مواليد الثلاثينيات، لا أدري بالضبط. فكّرت قليلاً في شخصيته، هذا سجّان سابق بلا شك، كلّ المواصفات التي ردّدها، ولم تنطبق عليّ، انطبقت على آخرين من بينهم أهل ومعارف قضوا بسببها أشهراً أو سنوات في السجن، والأقبية المنسيّة. لا بدّ أن يكون سجّاناً، لا بدّ. سألت:

– هل تعرف ضو النهار، خيّاط القوّات النظامية، وابنه قمر الدين، وابنته شامة الملقبة بملح الطعام؟

ردّ بسهولة:

– نعم.. حق المعرفة.

– هل تؤمن بوجود النوافذ الضيّقة والكوى والأقبية المظلمة؟

– نعم.

– هل شاهدت العدس وهو مطهوّ بإهمال، وراودك الفضول في تذوّقه؟

– كثيراً جدّاً.

– هل ساورك الشك في مسائل لا يساور الناس فيها الشك في العادة؟، مثل من أمّ من؟، ومن أبو من؟، وتلك مختونة أم غير مختونة؟

– طبعاً.. طبعاً.

– هل حملت مرّة رسالة من رجل لامرأة، وتحرّشت بالمرأة وأنت تسلّمها الرسالة، وحصلت منها على شيء؟

هنا تردّد قليلاً، بدا مضطرباً وهو يطالع المجتمع الصغير الملتمّ من حوله، كأنّه يتأكّد من شيء، أو ينتظر وحياً، لكنّه أجاب:

– نعم، عدّة مرّات.

– وهل نفّذت وعدك لأولئك النسوة برعاية أزواجهنّ؟

– لا.. صراحة.. لا.

– هل لديك شهادة تقدير من الدولة؟
– نعم، ثلاث شهادات معلّقة في بيتي.

عند ذلك توقفت عن المحاورة. شعرت بنشوة كبيرة، نشوة أعمق كثيراً من نشوات عديدة خبرتها في حياتي، وحملتها في داخلي، محاولاً إبقاءها لأطول وقت. ومثلما حصل منّي على معلومات في غاية التفاهة، تمثّلني سلبياً وقحاً، لم يدخل السجن أو أقبية الأنظمة المظلمة، ولم يتلذّذ بهتاف التظاهرات، ومناظر الفتيات النحيفات، المنكوشات الشعر اللائي يصرخن: «حرّية.. حرّية»، حصلت منه على ما يجعلني شغوفاً بطرده من بيتي، الآن حالاً. لا يهمّ من هو، وما رتبته السابقة والحالية إن كان ما يزال في الخدمة، وكم سجيناً عرفهم وسحلهم أو عطف عليهم، ولا يهمّ كم امرأة أغواها، وذرف اللذّة في بيتها، وكم طفلاً أعطاه قرشاً لشراء حلوى، المهمّ أنّه في مكان لا ينبغي أن يكون فيه، وفي ضيافة شخص لا يرغب في هذه الضيافة.

وقفت فجأة. جمعت كلّ الأقداح الفارغة التي أمامي في صينية كبيرة، حملتها بحذر إلى المطبخ، كانت تهتزّ، ويُخيّل إليّ أنّ نبضات من صراخ الغرباء تسهم في اهتزازها، وضعتها على حوض الغسيل الجاف، وعثرت فوق سطح الطاولة الخشبية التي تحتلّ نصف مساحة المطبخ الضيّق على بقايا طعام، بعضها ممضوغ بإهمال، وبعضها سليم، حامت حوله الأيدي لكنّها لم تمسّه. مؤكّد جاء هؤلاء الغرباء بشيء من مستلزمات الحفل، ولم أكن منتبهاً لذلك، وانصبّ تفكيري كله في محاولة فهم وجودهم في بيتي، والعثور على طريقة للتخلّص منهم. وقبل أن أستدير وأغادر المطبخ، عثرت في ركن نظيف على صندوق مغلّف بورق وردي عليه رسوم مختلفة، ومربوط بشريط أحمر، ذلك التميّز الذي تملكه علب الهدايا. أمسكت بالصندوق،

رفعته إلى عينيّ، كان مكتوباً عليه: «إلى العزيز علي صلاح، مع الأمنيات الطيّبة برحلة آمنة إلى خور عاج. يُفتح بعد نهاية الحفل».

أعدت الصندوق إلى مكانه من دون أن أهتمّ كثيراً بمحتواه، غالباً قلم حبر غبيّ نافد الحبر، أو ساعة جوفيال مقلّدة، أو عطر رخيص من تلك التي تتناثر على أرصفة الأسواق الشعبية، وكلّها عبارة عن كحول، لا تمنح أيّ رعشة أو انتعاش.

عدت إلى الصالة، وقد طرأت على بالي فكرة قد تجدي وقد لا تجدي، لكنّها فكرة على أيّ حال. صرخت:

– انتباه يا سادة.. انتباه من فضلكم.

وأضفت:

– أولاً أشكركم على حفلكم البهيج هذا، لقد سعدت بكم طيلة هذه الساعات، وقبلت هديّتكم التي لا بدّ كلفتكم كثيراً، وملتزم برؤيتها بعد نهاية الحفل، لكن حزنت أنّ صديقي الذي نظّم كلّ هذا لم يأت.

ردّ أحدهم، أو ربّما ردّ اثنان أو ثلاثة:

– سعد نزوة؟ نعم كان من المفروض أن يأتي. لا ندري أين ذهب.

استغربت فعلاً، ليس لأنّ سعد حسّان المعروف بسعد نزوة في محيط أصدقائه ومعارفه نظّم حفلاً طائشاً لوداعي، ولم يخبرني به، أو يحضره، ولكن لأنّه هو نفسه من المفترض أن يسافر معي غداً إلى خور عاج، إنّه سائقي ودليلي في الصحراء، والأهمّ من ذلك أنّه من أصدقاء العمر الذين تقلّبوا في الضجر والمأساة والغياب، لكنّهم ظلّوا أصدقاء.

ظللت مضطرباً باستغرابي، وأحاول التأقلم معه عدّة دقائق، إلى أن هدأ أخيراً، واستعدت نشاط الذهن. أريد أن أفعل شيئاً لأتخلّص من هؤلاء، ثمّ أرى مسألة نزوة بعد ذلك... قلت بهدوء:

– يا سادة، أختي نفيسة وأطفالها الذين يسكنون في حجرة واحدة في بيت أهل زوجها سيأتون بعد ساعتين ليقيموا هنا حتى أعود من انتداب خور عاج، فلنخلِ لهم المكان جميعاً، ونتركه نظيفاً.

نعم، كانت لديّ أخت اسمها نفيسة، وتقيم فعلاً مع أطفالها في غرفة ضيّقة في بيت أهل زوجها، لكنّي لم أعدها بشيء. لم أخبرها حتى بنقلي إلى منطقة بعيدة. كنت أخشى استيلاءها على بيتي، وهذا أمر عادي جداً، يحدث عند كلّ الناس، ولا أريده أن يحدث عندي.

في خلال دقائق، عملت الأيدي كلّها في التنظيف والتنظيم، ولمّ البعثرة، بل والارتقاء بسحنة البيت أيضاً، فحين عثر أحدهم، وكان صبّاغاً في شركة «بي تي» للمقاولات، كما عرّف نفسه، على بقايا صبغ في علبة صغيرة في المطبخ لا أذكر متى أحضرته ولأيّ غرض، خلطه بمحلول نفّاذ الرائحة أخرجه من جيبه، واستخدم فرشاة أخرجها من جيبه أيضاً، وباشر في دهن الصالة بسرعة شديدة. حين خرج الجميع واستعدت بيتي مرتّباً ونظيفاً، أغلقته وخرجت. سأتحاوم في حيّ المستشفى، وأزور شجرتي في المدرسة، لكنّ الاستلقاءة واستدعاء الأحلام لن يحدث بالتأكيد، فقد كان اليوم مشحوناً وبذيئاً، وغالباً سيحضر سعد نزوة ليبرّر لي ما فعله، وليبيت معي حتى ننطلق مبكراً.

2

كان المساء في بدايته حين وصلت إلى حيّ المستشفى القديم، الحيّ الذي وُلدت فيه، ونشأت وكوّنت تلك القصّة الصامتة مع بنت جيراننا، قبل أن تتركه العائلة إلى حيّ آخر، وأنفرد أنا ببيت شخصي استأجرته بعد وفاة والدي ووالدتي وزواج أختي الوحيدة.

كان حيّاً صغيراً، مكوّناً من أربعين بيتاً ليس فيها أيّ ميزة سوى أنّها قريبة من أماكن الضرورة والصخب. كان معظم البيوت الآن تالفاً، الحيطان مهدّمة، والأسقف يستفزّها المطر ويقهرها، والغرف الضيّقة غالباً لم تعد تعثر على من يهتمّ بضيقها، كانت مكدّسة بالناس والأشياء. وأذكر أنّني مرّة حضرت، مصادفة، مزاداً أمام أحد البيوت، وكان صاحبه الممرّض المتقاعد يودّ الهجرة العكسية إلى قريته في الغرب، كانت الأغراض المعروضة للبيع، والتي أُخرجت منه، مريعة. إنّها أغراض سبعة بيوت مجتمعة، لا بيت ضيّق مثل الذي أُخرجت منه.

كان ثمّة ميدان صغير في وسط الحيّ، نلعب فيه الكرة، أو نتّخذه مسرحاً للمؤامرات الصغيرة، حين ندفن فيه النقود المختلسة من آبائنا، وأحذية الفتيات أو ملابسهنّ الداخلية التي نسرقها من

داخل البيوت، ومن حين لآخر، كان الميدان يضجَ بصراخ الساسة وهم يلقون الوعود، وببضائع التجَار الجوّالين، حين ينصبون الخيام لترويجها، وربّما جاء ساحر من أولئك المنتشرين في البلاد، نصب خيمته، ومزّق روتين اللهو باستعراضات كانت تدهشنا جدَاً، ولم تعد تفعل ذلك في ما بعد.

كان الميدان ضاجّاً في تلك الساعة. عشرات الناس تجمّعوا في بقعة وسطه، وثمّة لغط كنت أسمعه، بالرغم من أنّني ما زلت بعيداً، وأقرب إلى محطّة الباص التي نزلت فيها. أحسست بانقباض بشع، مددت خطواتي، واحتككت برجل أشيب كان قادماً من هناك، سألته:

– ماذا يحدث يا عمّ؟

ردّ:

– فضيحة.

– أيّ فضيحة؟

– عثروا على طفل حديث الولادة ملقى في الزبالة.

– هل عثروا على أمّه؟

– لا.

– أين الفضيحة إذن؟

نظر إليّ باستغراب أولاً، ثمّ بازدراء، وخلته سيتحوّل إلى عصا تقفز إلى ظهري وتلهبني، كان صوته محتقناً بالبصاق حين نطق:

– الفضيحة أنّ هناك طفلاً حديث الولادة ملقى في المزبلة وسط الأوساخ، سواء أظهرت أمّه أم لم تظهر، إن كنت تظنّ الأمر عادياً فأنت إمّا أبله، أو مجنون، أو سكران.

رمى الإساءة كبيرة في وجهي وانصرف، وظللت دقائق أتلظى بكلماته، وأحسّ بطعمها المرّ كلما بلعت ريق الإحساس، لست أبله أو مجنوناً، ولم أسكر في حياتي قطّ، لكنّي أفكّر بمنطق فقط، وجود الطفل

ملقى في مزبلة، هذه جريمة. لكنّ العثور على أمّه هو الفضيحة. نحن في عام 1972، لدينا قوانين، وفي الوقت نفسه لدينا قراءات خاطئة وعنيفة لمفاهيم كثيرة.

تابعت الرجل بنظراتي قليلاً، كانت مشيته شديدة الشبه بمشية وزير المالية السابق، الذي كان أول من نادى بتعويم الجنيه الذي ظلّ عائماً حتى بعد أن ترك الوزارة، من دون أن يعثر على مرفأ. ثمّ استدرت، ركضت بسرعة، ووصلت إلى بؤرة الصخب.

كانت ثمّة امرأة في حوالي الثانية والخمسين، تحمل طفلاً ملفوفاً في خرقة بيضاء ممزّقة، وتمسك بيدها اليمنى رضّاعة من الزجاج مليئة بالحليب، تضعها في فمه، بينما وقف شرطي شابّ بدين بقربها، يتنهّد بين حين وآخر، ويمسح عرقاً مالحاً بمنديل مطرّز من القماش الأبيض.

سألت مباشرة:

– لماذا لا تدخلونه المستشفى يا عريف؟

ردّ بصلف:

– أولاً لست عريفاً، ثانياً صحّته جيدة، ولا يحتاج إلى مستشفى.

اقتربت من الطفل، والشرطي لم يسمح لي بالاقتراب تماماً، وأيضاً لم يحاول إقصائي. كانت نظراته تقوى حيناً، وتتقهقر حيناً آخر، لمست رأس الطفل، كان ليّناً وفيه فراغ صغير، نظرت إلى عينيه، كانتا عيني رضيع، بلا أيّ ذاكرة ممتلئة بالمجد أو الخذلان، أمسكت إحدى يديه، كانت حمراء، وفيها بثور صغيرة. أحسست بالرغبة في قرصه برقة في خدّه، والابتسام له، ومراقبة صراخه المتوقع في هذا العمر، ولم يكن الجوّ ملائماً لأيّ مداعبة، ولا كان طفلاً عادياً، بوصف عادي. همست، أو تمتمت: «ما الاسم الذي سيحمله يا تُرى؟»، والمرأة سمعت، قالت: «نصيري، أو نصر الدين»، لم أسمع جيّداً، كان

لسانها يغبّر الكلام، يخفي الكثير من ملامحه. أعرف هذا النوع من الألسنة، إنّه هبة عند البعض، ولعنة عند البعض الآخر ممّن وُلدوا به. تركت الطفل، والتفتّ إلى الشرطي:

– إذن لماذا لا تضعونه في أحد بيوت الحيّ، أو تذهبون به إلى مركز الشرطة بدلاً من عرضه أمام كلّ هؤلاء الناس؟

– ننتظر شيئاً، ربّما تمرّ أمّه، وتراه فيرقّ قلبها.

– اسمع يا أخ،قلت بجدّية، الأمّ التي يرقّ قلبها لا ترمي طفلها في الشارع، حتى لو حملت به من الشيطان، هذا لا يحتاج إلى درس، هل تفهم؟

الشرطي البدين الذي ليس عريفاً، لم يفهم. تورّم وجهه الممتلئ فجأة بملامح بعيدة عن التسامح، أكثر من ذلك رفع صافرة صغيرة معلقة في جيب قميصه بخيط رقيق إلى فمه، ونفخ فيها نفخات متكرّرة، وفي لحظات كان ثمّة رجلان بثياب مدنية من تلك التي يرتديها أعراب الضواحي، ينبعان أمامي لا أدري من أين، أمسكا بي بلا أيّ سؤال، قاداني عبر الميدان، إلى الشارع الرئيسي، الذي عبرناه وتوغّلنا في شارع ترابي يفضي إلى مركز الشرطة الذي أعرفه جيّداً، فقد كان ملاصقاً لأول مدرسة ابتدائية دخلتها، وكان اسمها «الشرقية»، والآن أرى اسمها قد تغيّر إلى مدرسة «الثورة»... كنت أتحدّث طوال الرحلة التي استمرّت حوالي عشرين دقيقة، أبيّن وجهة نظري في أمور كثيرة، بعضها مفهوم للعامّة، وبعضها أنا نفسي لا أفهمه، وأحتجّ على تلك المعاملة، لكن لا أحد يسمع ولا أحد يودّ أن يفتح عينيه باحترام ليرى أبعد ممّا يعتقده. كان إجراءً مترفاً في غبائه، وسيرى هذان الهزيلان المتخفّيان في ثياب الأعراب كيف أعامل حين أتحدّث مع الضابط المسؤول.

كان ما يؤلمني بحق أنّني لم أرَ حبيبتي، ولم أشبع صمتي بوجهها، وأنّني سأسافر حزيناً.

بالنسبة للشجرة لا مشكلة، لقد ظلّت صامدة سبعة عشر عاماً ولا أظنّها ستموت في تلك الفترة التي سأقضيها في الضواحي.

قلت ونحن عند باب قسم الشرطة في محاولة أخيرة لاجتياز تلك المحنة:

– أنا ضابط إداري، وسأسافر غداً لتسلّم مهامّي في مدينة خور عاج.

– خور عاج؟

ردّد أحد الرجلين منبهراً، أو مذهولاً، لا أدري...

– خور عاج؟

ردّد مرّة أخرى وهذه المرّة استطعت أن أميّز الذهول جليّاً في صوته.

– نعم، هل تعرفها؟

– أكيد، أنا من هناك، أنت علي صلاح؟

– نعم.

قلت وأحسست بأنّ مسكة الرجلين تتهاوى، وأنّني أصبحت حرّاً. لم يطرح الرجل أيّ سؤال آخر، ولا أنا كنت متشوّقاً لمصادقة الشرطي المولود في خور عاج، واستخلاص معلومات منه غير تلك الأساطير التي أسمعها عن القرى. سأذهب بلا معلومات، سأذهب فقط لأنّني من المفترض أن أذهب.

ابتعدت بسرعة في اتّجاه الشارع الرئيسي، ركبت أول باص توقّف من دون أن أدقّق في وجهته. كنت أستطيع أن أرى ميدان حيّ المستشفى رؤية مضعضعة، لكن أستطيع أن أميّز وجود الزحام في وسطه، لا يزال.

حين وصلت قرب بيتي كان الليل قد أطلّ. ثمّة ظلام مشتّت في الشارع بسبب شحوب إضاءة عمود الإنارة الوحيد الذي بقي صامداً لم يسقط بعد، كانت سلوى بطرس، المرأة الأبنوسية الجميلة التي سكنت مع أمّها في الشارع منذ شهرين فقط، ويزورها أشخاص متباينو الملامح، أغلبهم من الرجال، تقف أمام بيتها، في ملابس بدت لي غير مؤدّبة، لكنّ الضوء الشاحب لم يكشف عن عدم أدبها جيّداً، ولا أدري هل كان في الصدر أم الفخذين، أم في كليهما. لم أحيّها، ولم تردّ على عدم تحيّتي، وحيّاها عابر آخر مرّ في تلك اللحظة وردّت... هذه المرأة تبدو جزءاً من مخطّط سرّي لأعمال غير مشروعة سأحاول تفاديها قدر ما أستطيع. من الواضح أنّ ثمّة خلافاً في وجهات النظر بيني وبينها، لكن في أيّ شيء؟ أنا حتى الآن لا أعرف عنها شيئاً. لقد أخبرني صاحب دكّان صغير في طرف الشارع أشتري منه أحياناً، أنّ سلوى بطرس من الكاثوليك الأتقياء بالرغم من أنّها لم تتّعظ بعظات كثيرة سمعتها هنا وهناك، ولم تكوّن أيّ فكرة عن الخلود والأبدية، ولم تردّد أبانا الذي في السموات، إلّا بعد أن قرصتها نملة سامّة وأوشكت على الموت، وأنّها معالجة روحية، تستطيع فك السحر، وإبطال العين التي قد تصيب أحداً في جسده وماله. لكنّي لم أهتمّ، وعادةً أصحاب الدكاكين المغروسة في الأحياء يدّعون معرفة الأسرار، وغالباً هم من يخترعونها ويروّجون لها.

كنت أمام الباب حين اقترب منّي شخصان يمشيان باعوجاج، ويصفّران بفوضى. ميّزتهما على الفور، كان أحدهما مغنّياً مغموراً في فرقة شعبية هزيلة المستوى اسمها «فرقة حلاوة»، يقيم في الشارع نفسه، قريباً من بيتي، والآخر كان ذلك الصبيّ الممتدّ الرموش والمكحّل العينين الذي كان يحاول الغناء في بيتي في الصباح، وهزّتني صورته كثيراً. كانا يبحثان عن سجائر، ولم أكن أدخّن،

واستغربت حقيقةً من ظهور ذلك الصبيّ فجأة في حياتي، وحياة الشارع، ولم أكن قد رأيته من قبل صحبة ذلك المغنّي المغمور أو غيره من السكان. اعتبرته إضافة مأساوية سخيفة للمكان، ولم أفكّر في شيء آخر.

قلت:

– عذراً، لا أدخّن.

ردّ المغنّي:

– نعرف ذلك، لكن نريد ثمن علبة سجائر.

3

لم يأت سعد نزوة في تلك الليلة كي نبيت معاً ونسافر في الصباح إلى خور عاج كما هو متّفق. قضيت ليلة مضطربة أنتظره، استخدمت فيها كلّ حيل التناسي، والإهمال، وإطفاء الرغبات ومراقبة الكوابيس المحتملة، من أجل أن أنام، لكنّ ذلك لم يحدث، لم أكن أملك وسيلة مواصلات أستخدمها لتفقده في بيته الذي كان في أطراف المدينة، في حيٍّ لم يُسمَّ بعد، وكانت أجهزة الهاتف نادرة جدّاً ولا توجد إلّا في الإدارات المهمّة وخدمات الطوارئ.

بعد الفجر بقليل نهضت من سريري، جلتُ قليلاً في صالة البيت، والغرفة الأخرى التي لا أنام فيها إلّا نادراً، وكان فيها غرباء يوم أمس، وعثرت على بقايا ذلك العطر الغامض الذي اعتبرته عطر امرأة، لم أكن واثقاً... وسّعت حاسّة شمّي، حشرتها في زوايا الهواء المتيبّس داخل الغرفة، لكنّي لم أميّز شيئاً آخر. ربّما كان عطر أحد الغرباء، أو لعلّه عطر الصبيّ المغنّي، ونسبته إلى امرأة بلا وجه حق. غادرت الغرفة ووقفت في المطبخ قليلاً، كان مرتّباً، عملت فيه أيدٍ كثيرة يوم أمس وأعادته أقرب إلى مطابخ الأسر منه إلى مطابخ العزّاب. حتى فتّاحة العلب الصدئة التي أستخدمها كثيراً وأنسى غسلها في كثير

من الأوقات، كانت مغسولة، والراديو القديم، من ماركة فيليبس، الذي أحتفظ به هناك في الغالب، وأستمع منه إلى الدنيا من حين لآخر، كان موجوداً في مكانه، وقد تمّ تلميعه جيّداً. فتحته، أدرته على المحطة الوطنية، وكان ثمّة خبر عن صراع قبلي في مكان ما من الوطن، وآخر عن صراع قبلي في مكان آخر، وثالث عن صراع قبلي، في مكان ثالث. قبل أن ينطق ليتحدّث عن صراع قبلي رابع، أغلقته.

بدأت أفكّر في سعد نزوة مرّة أخرى، ذلك الصديق القديم الذي غاب زمناً طويلاً قضاه جندياً في الجنوب والغرب، وصحراء الشمال، كما ذكر، قبل أن يعود ويعمل معي في إدارة الحكومات المحلّية. أفكّر في ما حدث له، فليس من المألوف أن يجمّع شخصٌ غرباء بهذا العدد في بيت صديقه للاحتفال، ثمّ لا يأتي. وأيضاً كان غريباً جدّاً أن ينتهي اليوم كلّه ولا يأتي، ومن المفترض أن ننطلق بعد ساعة أو ساعتين على أكثر تقدير في سكّة السفر. فكّرت بجدّية شديدة. الجدّية التي تقترح أمراضاً وحوادث طارئة، ومشارح، وبيت عزاء، ونواحات. فكّرت بجدّية أشدّ، تلك التي تقترح السجون ومعتقلات التعذيب في عهد حكم متشنّج وقبيح. حاولت أن أفكّر بتراخٍ، وأن أتخيّل صديقاً سكر في بيتٍ سيّئ، أو ماخور، ينام مسمّماً بالشبق. بدا لي ذلك التفكير الأخير مناسباً مع واحد مثل نزوة، بلغ منتصف الثلاثينات من العمر، وما زال يتحدّث عن بنات الهوى المستهلكات منذ أوائل الستينيات، باللهفة نفسها التي يمكن أن يتحدّث بها عن فتاة عذراء.

تنفّضت من تلك العذابات، غيّرت ملابسي المجعّدة سريعاً، واتّجهت إلى باب البيت. كان النهار قد طلع، والشارع غدا مطروقاً بباعة الحليب والفحم، والكيروسين، وقليل من العمّال، وطلبة

المدارس، وكان المغنّيان المعوجّان، ما يزالان يتسكّعان قريباً من بيتي، وعلى فم كلّ منهما سيجارة منطفئة.

ناديتهما: «أنت، وأنت...»

اقتربا، كانا ممتلئين بالسهر كما بدا في العيون الحمر القاحلة من كلّ معنى أخّاذ، والشفاه اليابسة، المقشّرة من فعل التدخين طوال الليل، وقد لعب المغنّي الأكبر سنّاً بشاربه كما يبدو، مستخدماً موسى قديمة أو صدئة، فقد كانت ستة جروح واضحة في مكان الشارب.

قلت:

– ألا تنامان أبداً؟

ردّ الصبيّ المكحّل، وثمّة ضحكة قذرة نطّت من بين شفتيه واتّجهت عنيفة إلى أذني:

– النوم ضارّ بالصحّة يا سيّد.

أضاف المغمور صاحب الشارب المجرح:

– جدّاً.. جدّاً.

أضاف مرّة أخرى، وقدماه تتعاركان في شبه رقصة:

– جدّاً.. جدّاً.. جدّاً.

خطر لي أنّهما مزوّران، وأنّهما شخصان آخران غير الشخصين اللذين من المفترض أن يكونا. هذا المجروح الشارب لست واثقاً من اسمه بالرغم من أنّني صادفته مراراً في صفوف المخابز، والكيروسين المدعوم من الدولة، ومزادات السلع الهامشية، وميادين كرة القدم الترابية، واشتركنا مرّة مع آخرين من سكّان الحيّ في جمعية بخمسة جنيهات، يقبضها واحد منّا كلّ شهر، وكنت قد استغللت صرفتي في شراء ثلاجة كبيرة من ماركة كلفينيتور. أيضاً استأجرت الفرقة التي يغنّي فيها بتكليف من أحد زملائي في العمل، لحفل زفافه. قد يكون اسمه عبد العال، أو مرتضى، أو ميرغني... ما اسمه؟.. لا أعرف حقيقة.

قلت بهدوء:

– عفواً يا رفيق، نسيت اسمك.

ردّ، وأيضاً نطّت من حلقه ضحكة قذرة، شبيهة بالتي نطّت من حلق الصبيّ:

– لا مشكلة يا سيّد، أنا شخصياً نسيت اسم جدّتي لأمّي، ولا أحسّ بالحرج، سأذكّرك: اسمي عبد العال، وينادونني مرتضى، وأحياناً ميرغني.

وقفت متسمّراً أتخيّل الانفعالات التي لا بدّ تفاقمت وتراكمت على وجهي. اتّضح أنّني أجيد تذكّر الموادّ المنسيّة، أو حتى تلك التي لا أعرفها. كنت أعرف اسم لاعب الكرة السابق، من دون أن أكون أعرفه، والآن أعرف اسم المغنّي، ولقبين يخصّانه، من دون أن أعرف أنّني أعرف.

فجأة أحسست بنشوة فيها هلع، أحسست بأنّني يمكن أن أكون أعرف اسم هذا الصبيّ المكحّل أيضاً، بالرغم من أنّني لا أعرفه، ولم أسمع به أبداً قبل صباح أمس، قلت في سرّي، اسم التائه يشبهه، لا أحد بهذه المواصفات الآثمة يمكن أن يكون إسمه سالم أو سعيد أو أيّ اسم آخر فيه بشاشة أو استقرار.

– وأنت، ما اسمك يا صغير؟

التفتّ إليه، لم تأسرني عيناه المكحّلتان، على العكس أضافتا لي أسىً كثيراً. تُرى من أين أتى هذا الولد؟ من تكون أمّه؟ من يكون أبوه؟ ما العائلة التي انسلخ عنها؟

ردّ:

– تخلّيت عن اسمى منذ كنت في العاشرة، واتّخذت أسماءً عدّة، والآن أنا بلا اسم، سمّني أنت بما تراه، وسأقبل...

قلت:

– التائه، أجده يناسبك. كنت أعرف شخصاً يشبهك اسمه التائه.

في الحقيقة، لم أكن أعرف شخصاً يشبهه، ولا عرفت شخصاً اسمه التائه أبداً في حياتي، إنّها الزيادات المطلوبة عند نصب أيّ فخّ، لكن هل هذا فخّ؟ ربّما.

ردّ:

– قبلت بالإسم، والآن أعطني رسوم تسجيله رسمياً لدى الدولة.

ضحك، الضحكة القذرة التي ينبغي أن أنفض أذني منها سريعاً، وهذا ما فعلته، زميله عبد العال لم يضحك، قال:

– في جيب هذا السيّد نقود كثيرة، أنا واثق من ذلك، خذ خمسة جنيهات، لا أقلّ من خمسة جنيهات.

التفت إليّ:

– وإن دفعت عشرة فسنحرس بيتك في غيابك.

أضاف الصبيّ:

– نعرف أنّ أختك لن تقيم هنا كما ادّعيت، لكن نحن في الشارع... نغنّي ونرقص، ونحرس البيوت.

وبدأ يغنّي نشيداً وطنياً اسمه حماة الديار، يردّدونه من أيّام المستعمر الإنجليزي، ولم يشكّل وجدان أيّ مواطن حرّ في البلاد بالرغم من محاولة كلماته أن تشكّل وجدان أحد ما، خاصّة حين تصف العدوّ بالفعل الماضي، كناية عن أنّه كان وانتهى. هو الصوت الخطأ ذاته الذي كان يحاول الانطلاق في بيتي أمس، فقط أحسست أنّ فيه دمعة. أخرجت عشرة جنيهات من جيبي، منحت نصفها للتائه، ونصفها لعبد العال، ودخلت بيتي. يوماً ما سأعرف شيئاً عن هذا الولد، وإن كان يستحق تنظيفه وتنظيمه، أم ركله بأقسى أحذية تملكها القلوب؟

4

ركبت أول شاحنة متّجهة إلى موقف «أبي جنزير»، وسط العاصمة. كانوا قد حوّلوا الشاحنات المكشوفة الفظّة، المصمّمة خصّيصاً لنقل البضائع بين الأسواق والمدن، إلى مواصلات عادية، رسمية، من دون الالتفات إلى أيّ مضاعفات قد تحدث من جرّاء ذلك، مثل الكسور البسيطة والمضاعفة، وارتجاج المخّ، والولادات المبكرة، وعدم انتظام الدورة الشهرية لدى الفتيات، التي يحدثها رعب الارتطام بصخرة، أو السقوط في مستنقع أو حتى ضوضاء النفير العشوائي، الذي ينطلق مستهتراً في كلّ لحظة.

كان تنفّسي متسارعاً، وظهري يتقوّس ويعتدل، وثمّة امرأة حامل أمامي بدت في لحظة مخاض تعس، فقد احمرّ وجهها واخضرّ وازرقّ، وانفرجت ساقاها قليلاً، وكأنّها صرخت: «يا ربّ». وكان ثمّة رجل في حوالي السبعين، تحوّل إلى خطيب وقح فجأة، وبعد ستة ارتجاجات ارتجّها بفعل الحفر، صار يسبّ أيّ شارع نعبره، وأيّ ملمح مبهج أو كئيب ارتسم في مكان ما، وأيّ وجه مليح أو حتى أجرب طالعناه طوال رحلة الشاحنة المقيتة، لدرجة أنّني فكّرت أن أقترب من فمه، وأصفع لسانه.

كان السائق قد نسي مايكروفوناً يعمل بالبطّاريات مثبّتاً على السقف المقحم في تصميم شاحنة لم تكن تتخيّل أبداً أن يُصمَّم لها سقف، وموصولاً بقمرته بأسلاك رفيعة من أجل مخاطبة الركّاب إن دعا الأمر، مفتوحاً، فقد كنّا نسمع ثرثرته الوقحة مع راكبة تجلس بجانبه، كان يسألها إن كانت تؤمن بالصداقة بين الرجل والمرأة بحيث يبيتان في سرير واحد من دون أن يلمس أحدهما الآخر، والراكبة تردّد بصوت مختنق: «احترم نفسك.. أرجوك». والسائق لا يحترم نفسه، بل ينتقل بسهولة شديدة إلى سؤال أكثر قبحاً.

حين وصلنا إلى ميدان «أبي جنزير»، المزدحم بالنشاط في كلّ ساعة من ساعات اليوم، هبط معظمنا من الشاحنة بصعوبة. المرأة التي في لحظة مخاض بدأت تصرخ، والمسنّ صاحب الخطبة استمرّ بخطابه، وصرّح عسكري من الجيش كان يركب معنا بزيّه الرسمي أنّه منتعش لأنّ ثمّة مساواة في التحدّيات بين المدنية والعسكرية، تمثّلت بوضوح في تلك المواصلات. وقف معتدلاً، رفع يده اليمنى، وحيّا الشاحنة بتحيّة عسكرية بدت لي مضحكة، لكنّي خفت أن أضحك.

أنا لست مغرماً بالقضايا من أيّ نوع، ولا أعرت التواء عنقي والألم المتجمّع في خصيتيّ وأسفل ظهري أيّ التفات. عبرت بأفضل ما أستطيع من خطوات إلى حيث شاحنة أخرى تقف في طرف من الموقف، كتب على جانبيها: «بلا اسم»، وكان ثمّة منادٍ طفل، يضع سيجارة خلف أذنه اليسرى ويصرخ: «بلا.. اسم... بلا اسم.. إلى حيّ بلا اسم».

ركبت هذه المرّة بجانب السائق، على المقعد الذي غالباً ما يُملأ بامرأة، لكن لم تكن ثمّة امرأة بمواصفات الابتذال المحفورة في

أذهان السائقين متوفّرة في تلك اللحظة. رماني السائق الخمسيني بأقلّ قدر من النظرات يمكن أن يُرمى به شخص، ولم يقل شيئاً.

كنت قد زرت سعد نزوة مرّتين أو ربّما ثلاث مرّات في بيته ذلك الذي يقيم فيه بمفرده، وأعرف أنّ أهله يقيمون في مدينة إقليمية نزحوا إليها منذ سنوات، وأنّه تزوّج مرّات عديدة في الجنوب والغرب حيث عمل، لكنّه الآن بلا زوجة، وتافه إلى أقصى حدّ. أنا أيضاً بلا زوجة وقطعاً يعدّني سعد نزوة وغيره من الذين يعرفونني تافهاً إلى أقصى حدّ.

كنت أتعرّف عادة إلى البيت، وسط تلك البيوت الطينية المتشابهة، بعربة المارشال الرابضة أمامه، وهي عربة كارو قديمة اتّخذها مجنون عجوز يرتدي ثياب فيلد مارشال ألماني، كحلية اللون، مسرحاً لتجارته المتخيّلة. كان قد فرش عليها أعقاب سجائر، وعلب صلصة فارغة، وأعواد كبريت بلا رؤوس، وهياكل عظمية لسلاحف وجرذان، وثلاثة كتب فلسفية من تأليف الفرنسي رينيه ديكارت، وفي ركن منها كتب عليه: «ركن الزينة والجمال» وضع رماداً، وبقايا صابونة من ماركة فنيك، وزجاجة فيها سائل أصفر غير معروف هويّته، وكان يتحدّث عنه بهمس لكلّ من يسأل.

كان منظراً لا يتغيّر أبداً، الرجل بالهيئة نفسها، والبضاعة لا تنقص لكن قد تزيد بسلعة جديدة من حين لآخر.

كان المجنون ذلك يستهويني، خاصّة أنّ لباسه العسكري يبدو نظيفاً ومرتّباً دائماً، والحذاء الذي يكمل الزيّ عسكري أيضاً. سألت سعد مرّة عنه فأجاب بأن لا أحد يعرف إسحق معرفة جيّدة، أو سطحية حتى، إنّه إسحق فقط بلا أيّ إيضاح آخر.

انتبهت إلى أنّ السيّارة اللاندروفر الرمادية موديل 1962، التي منحتها لنا الإدارة لنسافر بها، والتي من المفترض أنّ سعد تسلّمها

وجهّزها للسفر، غير موجودة أمام البيت، ولا في الساحة المغمورة بالمياه الضحلة التي تحيط بالمنطقة، ساحة الملاريا كما يسمّيها سكّان تلك المنطقة، كناية عن تكاثر البعوض فيها، وكانت قد رُدمت مرّات عدّة كما أخبرني سعد، لكن دائماً ما تعود مخبولة بالضحالة، ولا أحد يعرف لماذا.

كنت أعرف بيتاً مشبوهاً في تلك المنطقة، تديره واحدة يسمّونها: عشوائية، أظنّها من بقايا رقيق الشمال الموجودين في العاصمة. وكنت قد زرتها مرّة واحدة فقط برفقة سعد، ولم أبتهج. كان الهواء في بيتها مسمّماً ببخور سيّئ الرائحة، وكان دخوله صعباً بسبب الحجم الصغير للباب، واضطرار الزائر لأن ينحني ليدخل. وهي نفسها، والفتيات اللائي تقدّمهنّ لزوّارها، في غاية البلبلة الجسدية، مزيّنات بغباء، ولا يملكن مظهر نساء صنعتهنّ المتعة. كان سعد يزورها باستمرار، وفكّرت أنّه مع السيّارة هناك فدرت حول البيوت الأمامية، وتوغّلت في الأزقة والحفر. لكنّي لم أجد شيئاً. كان بيت عشوائية صامتاً في ذلك النهار، وقطعاً يختزن كلّ تفاهاته ليطلقها في الليل. عدت ودخلت بيت سعد الذي كان بابه الخشبي مفتوحاً.

كان سعد راقداً على سرير من الحبال، في وسط صالة بيته القليلة الأثاث، وقدمه اليمنى موضوعة في الجبس، الذي امتدّ حتى منتصف ساقه. كان يدخّن، ويتلاعب بدخان سيجارته، وقد سقط بعض الرماد على قميصه البيتي الخفيف.

صحت:

– ماذا حدث؟

لم يلتفت، وأجاب كأنّه يخاطب السيجارة التي ما زالت متوهّجة في منتصفها:

– قدمي مكسورة كما ترى، سقطت في حفرة أمس صباحاً.

– كيف؟

– هكذا..

أطلق تلك الـ«هكذا»، ولم يفسّر كيف هي.. إنّها مجرّد شرح متقشّف لما قد يكون حدث، أو تخيّل متقشّف أيضاً لما لم يحدث قطّ. لم أصدّقه، وقد اعتدت عدم تصديقه في مواقف كثيرة، حتى قبل أن يختفي سنوات ويعود. لديّ إحساس دائم بأنّه يغلق صدره على أشياء كثيرة، ليست في العادة من تلك التي تغلق عليها الصدور. إنّها مواضيع يمكن طرحها، والحديث فيها، وبالرغم من أنّني أعرفه بالفعل جيّداً كما أعتقد، لكنّ تلك الـ«جيّداً» تتأرجح أحياناً.

كان ثمّة عكّازان من خشب أملس، من تلك التي تُستخدم في المشي للمعاقين، ترقدان على الأرض أمام سريره، ووعاء من الألومنيوم الخفيف، يتصاعد منه البخار، على مائدة متربة أمامه، وفي أقصى الصالة تبدو قلّة ماء صغيرة تنزّ منها الرطوبة.

– لا أصدّقك.

قلت.

– بل يجب أن تصدّقني.

ردّ.

وأضاف:

– كنت في طريقي إلى محطّة الباصات، لأذهب إلى الإدارة وأتسلّم اللاندروفر، وأجهّزها للسفر، اسأل هذه المرأة الطيّبة.

ورفع صوته منادياً: «يا حاجّة».

ومن مكان خفيّ، أعرف أنّه مطبخ صغير به موقد يعمل بالكيروسين، وبعض أدوات الطبخ، والكؤوس والفناجين، ظهرت امرأة في نحو الستّين أو أكثر، ممتلئة وقصيرة، وكبيرة الصدر إلى حدّ ما، وشديدة الشبه بأيّ امرأة أخرى في مثل هذا العمر. كانت ترتدي ثياباً

بسيطة جدّاً، من موادّ قابلة للاتّساخ بسرعة، تحيط معصمها الأيمن بأساور لمّاعة كانت لاصقة بعنف بلحم المعصم. كانت المرّة الأولى التي أراها فيها، مؤكّد أنّها من نساء الجيران المستعدّات للمساعدة في أيّ وقت، وقد جاءت لتخدم جاراً مكسور القدم:

– نعم، سقط أمس في الشارع، وحمله القسّيس وأبراموشا إلى المستشفى، وأعاداه اليوم.

كان صوتها لا بأس به، صوت لا تتمنّى أن تمتلك مثله، وفي الوقت نفسه لن تتذمّر لو كان صوتك، أو صوت أمّك أو جدّتك. لطالما انتبهت إلى الأصوات، وتمعّنت فيها، وقيّمتها في ذهني بتقييمات رأيتها مناسبة. وصوت الحاجّة قيمته سبع درجات من عشر. قلت:

– القسّيس وأبراموشا؟ من هما؟

– لا عليك منهما، إنّهما من موزّعي الحشيش الطيّبين في الحيّ.

قال نزوة.

المرأة انحشرت في الحوار:

– لا، لا يوزّعان الحشيش، لا تنسب إليهما شيئاً لا يفعلانه يا سعد، يوزّعان البانجو فقط.

ضحكت أولاً في سرّي، ثمّ علانية، ثمّ أوشكت أن أحمل ضحكتي وأتراقص بها في الطريق.

الحشيش والبانجو... ما الفرق؟

جلست بجانب نزوة، على طرف السرير الذي كان منسوجاً بحبال قويّة، ويحتمل ثقلينا معاً. كان هو من نظّم ذلك الحفل الغريب بالفعل نوعاً من المزاح، لكنّه أنكر بشدّة معرفته بالذين وصفتهم له، أي الأشخاص العشرين الذي حضروا وأضرموا في بيتي صخباً لم ينته صداه حتى الآن. لم يكن على صلة بلاعب الكرة مبروك، صاحب

الأمجاد الزائلة، ولا العجوز السجّان الذي ظلّ يتأرجح في المقعد المكسور أكثر من عشر ساعات من دون أن يفكّر في نشاط آخر، ولا الصحفي المفترض، صاحب رباط العنق الأخضر، أو الصبيّ المكحّل، الممتدّ الرموش الذي سمّيته التائه، ولا حتى الشاعر المتعالي الجلف الذي ادّعى تأليف قصائد مشتركة مع شعراء إنجليز، وظلّ يصف حسناء من صنع مخيّلته سمّاها بلقيسي لساعات من دون أن يكلّ.

قال:

– دعوت آخرين من الواضح أنّهم لم يأتوا.

كان أمراً موغلاً في الغرابة، موغلاً جدّاً، لكنّي لن أضيّع دهشات أدّخرها للأفضل في أمر تافه كهذا. الغرباء جاؤوا واحتفلوا بأنفسهم ورحلوا، والهديّة التي تركوها، وفتحتها اليوم في الفجر قبل قدومي إلى هنا، كانت لا شيء، إنّها الهديّة المقلب كما يسمّونها، التي انتشرت في السنوات الأخيرة، حيث يقوم أصدقاء ما بالاحتفال بصديق لهم ومنحه هديّة، يستكشفها بعد رحيلهم، ليجد أنّها حجر خشن، أو سروال ممزّق، أو جرذ ميت، مغلّف بعناية حتى لا تنزّ رائحته، وقد كانت هديّتي قرن خروف مجوّفاً، محشوّاً بالرمل.

كان سعد غير مستعدّ للسفر بالطبع، وقد يحتاج إلى شهرين أو أكثر قبل أن يستردّ عافية قدمه التي سيقود بها العربة في الصحراء. وبالرغم من أنّ هناك سائقين آخرين في الإدارة، كان هو الوحيد الذي أستطيع الاعتماد عليه، فقد كان، بالإضافة إلى صداقتنا الممتدّة، نشطاً جدّاً، ومدرّباً على غزو الأماكن الموحشة، والبعيدة، بينما السائقون الآخرون مجرّد موظّفين بلا مواهب، يأتون في الصباح، يجلسون على دكّة من الأسمنت عند الباب الرئيسي لمبنى الإدارة لساعات قد يعثرون خلالها على مشوار، وقد لا يعثرون، ثمّ يعودون إلى بيوتهم. سعد ليس كذلك. كان عائداً من الحرب، وعثر عليّ لأنّه

أراد العثور عليّ، ووافق على العمل معنا في الإدارة، في أيّ وظيفة، فتسلّم وظيفة السائق، وعمل على تطويرها في أشهر قليلة. ومن ضمن ما فعله إنشاء صندوق خيري لأسر ضحايا حوادث الطرق من سائقي الحكومة في كلّ الإدارات.

إذن سنؤجّل السفر، هذا ما تبادر إلى ذهني، وما أخبرته به، وبدا سعيداً، لأنّه لن يخسر مغامرة خور عاج بسبب حفرة في حيّ بلا اسم، عطّلت حركته.

نهضت لأنصرف، وأمامي عصير ملوّن لم يكن مانجو ولا برتقالاً، ولا أيّ فاكهة أخرى أعرفها، وضعته الحاجّة، واختفت في المطبخ، ولم أتذوّقه ليس لأنّني لا أحبّ المرطّبات، ولكن لأنّي ضدّ الاقتراب من تلك التي بلا هويّة منها. اتّجهت إلى الباب، وباغتني صوت سعد من خلفي:

– عثروا على طفل ملقىً وسط الأوساخ في حيّكم القديم، هل سمعت بذلك؟

التفتّ إليه مندهشاً:

– كيف عرفت، وأنت لم تكن هناك؟

– أخبرني زوّار للمستشفى، صادفتهم حين كنت فيه. وأنت هل كنت تعرف؟

– نعم.. كنت هناك مصادفة وشاهدت الواقعة.

– ما زلت تتلصّص على تلك الأرملة سميّة؟

– ليس تلصّصاً، إنّه حبّ صامت.. أنت تعرف.

هزّ رأسه ببرود:

– نعم أعرف.

وأضاف:

– ألم تحدّثها أو تلمسها أبداً؟

– أبداً.. أبداً..

قلت مندهشاً، ذلك أنّ سؤال اللمس والكلام هذا سُئلته مرّات عدّة من سعد، وأجبت عنه بعبارة النفي نفسها. لا أدري ماذا يدور في ذهنه. هو يعرف تماماً أنّني لن أتزوّج، وأنّني لن أغوص عميقاً في انجذابي لتلك الأرملة، وسأكتفي بتلك النظرات التي أبتهج بها وأذهب.

– هل عرف أحد أمّ الطفل؟

– لا أعتقد، لا أحد عرفها حسب علمي... نعم... لا أحد أكيد.

ردّ، وعاد صوته إلى مخبئه في الحبال الصوتية.

عند الباب، احتككت بشابّين نحيفين، يرتديان ملابس بشعة ممزّقة عند الأكمام والركب، وقد طال شعر رأسيهما في شكل قبّتين هائلتين من الخشونة. كانا ينتميان بلا شكّ لما يُسمّى جيل الرفض، تلك الموضة التي ظهرت هذه الأيّام، وطبّقها الكثيرون في شعر الرأس المهمل، والملابس الأشدّ إهمالاً، وربّما توغّك ملحوظ في الأخلاق أيضاً. تفحّصني الشابّان قليلاً وارتبكا، وتأكّد لي أنّ لديهما ما يربك، لكنّي لست مهتمّاً بتفاصيل أيّ إثم في تلك اللحظة. عليّ أن أعالج مسألة عدم سفري إلى خور عاج في أسرع وقت، ولا أعرف ما الذي سيحدث.

– القسّيس وأبراموشا، أليس كذلك؟

ارتبكا بوضوح، تراجعا إلى الخلف، كأنّما ليفرّا، لكنّي أضفت:

– أنا صديق نزوة، أنا علي صلاح.

لم يعلّقا بشيء، ولا حتى ابتسما، وواصلا دخول البيت.

وقفت أمام عربة الفيلد مارشال إسحق لحظات، أتأمّل نشاطه المهووس في تلميع القاذورات، والمناداة عليها بصوت عسكري مخبول لا تشوبه أيّ نحنحة أو تمتمة أو سعال. كانت ثمّة حقيبة

نسائية من جلد التمساح بدت لي فاخرة، لكنّها قديمة ومقشّرة، موضوعة على سطح العربة، ولم أنتبه لوجودها حين دخلت بيت نزوة. رفعتها، قلّبتها بين يديّ، وشممت فيها رائحة حزن قديم، ربّما يخصّ صاحبتها، وربّما لا يخصّ أيّ أحد، ويخصّني وحدي، وأتخيّل وجوده. انتبه المارشال إلى وجود الحقيبة بين يديّ، فتوقف عن نشاطه، وقال مستخدماً الصوت المخبول نفسه:

– أعدها إلى مكانها، ليست للبيع، إنّها لحبيبتي.

وضعتها مكانها، ورحت أتأمّل وجهه الذي لا يمنح أيّ ملامح يمكن اقتفاؤها إلى شعور محدّد، هو وجه رجل فقط.

سألت:

– هل تبيع الفوضى هنا يا فيلد مارشال؟

ردّ:

– الفوضى لا تحتاج للبيع في المحالّ التجارية، أيّها الجندي، إنّها متوفّرة في أيّ مكان.

5

وقفت أمام مديري ثابتاً، أنتظر أن ينهي التدقيق في أوراق أعرف أنّها سطحية وروتينية، يحملها بين يديه.

كانت عادة الانشغال بـالأوراق، والاجتماعات اليومية، هوساً إدارياً متّبعاً في كلّ إدارات الحكومة، وأيضاً الشركات التي قد لا تكون تنتج شيئاً ذا قيمة. وأعرف مديراً في مصلحة الغابات حصل على شهادة ماجستير مدهشة في السلوك الإداري هذا، وأضاف حلولاً قد تفيد في تقليصه مستقبلاً، وزاره صحفيون من وكالات عدّة لإجراء حوارات معه، وفوجئوا بأنّه مشغول بأوراق بين يديه، انتهى منها بعد ساعتين، ودخل اجتماعاً موسّعاً لمناقشة أسباب سقوط المطر مبكراً ذلك العام، لم يخرج منه إلّا عند الفجر.

إسماعيل خاتم، مـديري، لم يكن متطرّفاً في ذلك السلوك، يمارسه لكن بعبقرية تتناسب ومستواه التعليمي، ولم يكن يملك في الحقيقة أيّ مستوى تعليمي، كان مساعد ناظر إداري في الضواحي، أيّام حكم المستعمر، وساعد الإنجليز في تلافي تعقيدات محدودة مثل رفع سنّ الزواج لدى الفتيات من عشرة أعوام إلى ثلاثة عشر عاماً، والسيطرة على مهووس ديني اعتدى على عدد من خيالات المآتة

في قرية قريبة من العاصمة وحطّمها بزعم أنّها أصنام تمتّ بصلة القرابة لهُبَل ومناة واللات والعُزّى، أصنام ما قبل الإسلام المعروفة. أيضاً اختار لمأمور إنجليزي كان يحبّ النكات الصعلوكة مجموعة منها كتبها بخطّ يده في كرّاسة أهداها إليه، وأقنع رئيس جمعية المكفوفين، وكان من أقاربه، بأنّ طريقة بريل لتعليم المكفوفين التي كان الإنجليز ينوون تطبيقها في البلاد ليست نظاماً صهيونياً، ولا هي وسيلة من وسائل إطاحة المسلّمات الدينية، مثل الاستسلام للقضاء والقدر، كما كان يعتقد هو وكلّ المكفوفين المنضوين تحت اسم الجمعية.

مؤكّد أنّ إسماعيل خاتم تجاوز الخامسة والستين أو حتى السبعين، بالرغم من أنّ ذلك لا يبدو واضحاً في ملامحه المشذّبة جيّداً، ومشيته الخفيفة المتفانية في السرعة، لكنّ المتتبّع لسيرته الحياتية سيعثر على أحداث مشوّقة، وأخرى غاية في الملل، مرّت بها البلاد، ولا يعرفها إلّا أبناء جيل يتربّعون في الشيخوخة الآن. كان قصيراً، ممتلئاً قليلاً، يستطيع العثور على ملابسه بسهولة في محالّ مثل بوتيك حنفي الذي يجلب البضائع من مصر، ومحالّ الزهري المتخصّصة في الزيّ الأفريقي السفاري، وبوتيك قرياقوس الذي ينتج الملبوسات محلّياً ويضع عليها أسماء ماركات عالمية من دون أن يكترث أحد لدرجة أنّه بات يُعرف باسم غوتشي-سودان. فقط لم يكن يستطيع العثور على حذاء قياس قدمه، (47)، لكنّ ذلك لم يكن مشكلة، حيث يوجد كثيرون في الأسواق الشعبية والراقية يستطيعون كسوة الأقدام بأحذية قد لا تبدو أنيقة، لكن يمكن الزهو بها إلى حدّ ما.

كان قد وصل إلى الورقة الأخيرة، وأراد إعادة تدوير الأوراق في يديه حين تدخّلت:

– عفواً مستر إسماعيل.

قطعاً لقب مستر ليس مناسباً لرجل بتلك المواصفات، بل إنّه أقرب للقابلات الأمّيات اللائي يعملن في القرى البعيدة، منه إلى أصحاب المناصب، لكنّه اللقب الذي استطاع أن يهيمن عليه، ويفرضه بظرف شديد على موظفيه.

– نعم؟

وهذا صوت قيّمته منذ سنوات بـ3 من 10.

صوت لا تتمنّى أن تمتلكه، أو أن يمتلكه أيّ شخص تعرفه.

حكيت له باختصار ما حدث لسعد نزوة، وتأثيره على السفر إلى خور عاج، وأنّنا نحتاج إلى شهرين على الأقلّ حتى تعود الأمور إلى نصابها، ويبدو أنّ كلمة «نصابها» أعجبته، أو لعلّها المرّة الأولى التي يسمعها فيها، لأنّه ظلّ يردّدها، وهو ينقر بيده التي لا تحمل الأوراق، على الطاولة.

توقف أخيراً عن ترديد الكلمة وقال:

– لا بأس يا شابّ، خور عاج بلا ضابط إداري طوال عمرها، ما المشكلة لو ظلت هكذا شهرين آخرين، أو حتى عاماً كاملاً؟ اعتبر المسألة مؤجّلة في الوقت الحالي، وخذ إجازتك السنوية ابتداءً من اليوم.

لم أشكره، وهذه أيضاً تعليمات من سيادته شخصياً. أن تستمع إلى ما ينفعك أو يضرّك من رؤسائك من دون أن تبتهج أو تبتئس، أو تقول شكراً، كلّ ما على الموظف أن يفعله، أن يتأكّد إن كانت المقابلة انتهت أم لا، ثمّ يستدير وينصرف. من ناحيتي، دقّقت في اللحظة جيّداً، كان الهواء راكداً تقريباً، النافذة الوحيدة في الغرفة شبه مغلقة، صورة جعفر النميري المعلّقة على الحائط كما هي، صورة رئيس غير ملهم بالمرّة، ملامح المدير مستقرّة في تشكيل الوجه الذي كان أقرب

للطيبة منه للنزق، والأوراق على الطاولة في وضع الاستعداد للسفر في رحلة جديدة من التقليب. إنّها لحظة الانصراف إذن. استدرت لكنّ صوته باغتني من الخلف:

– هل تؤمن بالعين يا علي؟

كان سؤالاً جديداً في قائمة الأسئلة التي قد يسألها مدير لأحد موظفيه. إنّه سؤال اجتماعي يمكن طرحه في جلسة أسرية خاصّة، أو وسط أصدقاء من العمر نفسه، وضالعين في أنشطة متشابهة. بغضّ النظر عمّا راودني من استغراب تلك اللحظة، لكن حقيقةً لم تتح لي أيّ فرصة لأتأكّد إن كنت أؤمن بالعين أم لا. لم أكن أملك شيئاً يجلب الحسد ويحرّض العين على مطاردتي، هي وظيفتي التي تجعلني أعيش ولا شيء آخر، أردت أن أوضح ذلك لمستر إسماعيل، وخفت أن يختلط الاجتماعي بالرسمي في ذهنه، وهذا وارد بالطبع. قلت:

– إلى حدّ ما يا مستر.

– جيّد، سأكون صريحاً معك.

تخلّى عن الأوراق، أبعدها إلى أقصى ركن في الطاولة، لمس بيده زرّاً مثبّتاً على الحائط خلفه، لكنّ السكرتيرة لم تظهر، وكنت أعرف أنّها لن تظهر، ذلك أنّ مكتبه كان في معظم شهور السنة بلا سكرتيرة. كانت لديه امرأة كثيرة الغياب بشكل مرعب، ولا أدري لم يحافظ على بقائها. عبس قليلاً ثمّ واجهني اجتماعياً مرّة أخرى. كنت أتمنّى أن أسأله عن السبب في اختياري لهذا التواصل الغريب من دون الموظفين الآخرين، ولم أكن في يوم من الأيّام قريباً من الترقّي إلى كاتم أسرار لرجل يكبرني بأكثر من خمسة وثلاثين عاماً، وعدد لا بأس به من الدرجات الوظيفية المملّة، لكن ما هي الأسرار التي يمكن أن يشاركني بها رجل مثل هذا؟ وفي أيّ نشاط إنساني يمكن أن تصيبه عين؟ لم أفكّر أكثر، سأنتظر.

تلك الظهيرة، جلسنا على مائدة بعيدة عن الصخب في مطعم أمازون، وسط المدينة. كان من المطاعم المميّزة، صاحبه جورج عصام، المستثمر القبطي المصاب بهوس إنعاش المشاريع المحتضرة، اشتراه حطام مطعم، وحوّله إلى دهشة. لم أدخل مطعم أمازون من قبل قطّ، وكان لا بدّ من أن أتعثّر في الصور الباهرة المعلقة في الأركان، والنوافير الملوّنة الشفافة، وملابس النادلات اللائي يشبهن بنات اليونان، وغرناطة، كما أراهنّ في الصور. إسماعيل خاتم لاحظ دهشتي، أو لعلّه لاحظ متأخّراً، أنّ هيئتي لا تشبه هيئة مدعوّ إلى مطعم كهذا، لأنّه مطّ شفتيه قليلاً، بلع ريقه مرّتين، ومدّ نظراته إلى الطريق كأنّما يبحث عن إلهام ما، لكنّه عاد وتقدّمني إلى الطاولة. كان من الواضح أنّه يريدني بشدّة، ولا أعرف إن كان اختارني عشوائياً لأطّلع على سرّه، أم تتبّع خطواتي في الإدارة زمناً. هل أسأله؟ لا أعرف. لكن، وكأنّه التقط الأفكار التي تتصارع في ذهني، بادر هو بسؤالي:

– تعرف لماذا اخترتك لأحكي لك؟

– لا.. ليست لديّ فكرة.

ردّدت، وقد بدأت أتوتّر.

كان التوتّر هو أقرب مخرج استطعت أن أعثر عليه في تلك اللحظة.

– لأنّك الوحيد في إدارتي الذي لا يسمع، ولا يرى، ولا يتحدّث.

لم أعرف إن كان ذلك إطراءً، أم ذمّاً أم استخفافاً. والمديرون ورؤساء الأقسام في المؤسّسات العامّة، غالباً يملكون حساسية مخجلة تجاه اللغة، ويمكن أن يستخدموا عبارات رذيلة تافهة بنيّة تحسين صورة موظف ما. هذه هلوسة في حقي، وأعجز تماماً عن تقييمها. انخفض الآن تقييمي لصوت المدير من 3 إلى 2 من 10. وراودني هاجس قويّ بأن أختبر ثقافته الهشّة، أن أسأله: ما اسم أنثى الحمار

يا مستر؟، ما اسم ثقب الإبرة في اللغة العربية؟ ما معنى تفّاحة آدم؟، وبما أنّ النادلة الجميلة التي تشبه فتاة من غرناطة كانت تقترب منّا في تلك الأثناء بصدر مفتوح قليلاً، أردت أيضاً أن أسأله إن كان سمع بامرأة من جنوب أفريقيا اسمها بينلوبي كولين؟... والشباب الثلاثة الذين دخلوا المطعم فجأة مكتملين في موضة جيل الرفض المسيطرة على مزاج الشباب هذه الأيّام، أوحوا لي بسؤال: هل يحق للرجل العجوز أن يرتدي السراويل الممزقة، والقمصان التي بلا أكمام، ويبحث عن شعر مستعار، ينكشه، ويرفض؟... ضغطت على ذهني كثيراً لأخرج من ذلك الوسواس وقلت:

– هل تعتقد أنّها ميزة؟

– طبعاً، أنت مجتهد في ما يخصّ العمل، وفي ما عدا ذلك أنت أصمّ وأعمى وأبكم.

ارتعدت من وخز الأوصاف بشدّة. كانت أوصافاً مهينة حتى لو قيلت إطراءً، أو في حق شخص يملكها بالفعل. لكنّ ما لا يعرفه مستر إسماعيل، هو أنّني لست عند حسن ظنّه مع الأسف، فأنا أستطيع أن أنتبه مثلاً إلى ألوان الروج في شفاه الموظفات وأنتقدها في سرّي، بل إنّني أقترح، وفي سرّي أيضاً، إلغاء تلوين شفة ما، وإضافة خطوط أزهى إلى شفة أخرى. أيضاً أسمع أصوات الكعوب العالية وأميّز من تستخدمها من دون أن أرى. ولطالما شاركت بصوتي كاملاً في مناقشات كانت تدور حول قصص حبّ مزهرة أو متعثّرة في الإدارة. وأيضاً أعرف من الذي اختلس عشرة جنيهات، ومن اختلس الآلاف. وهذه النادلة التي تحمل إلينا الحساء، لاحظت اختلافاً في لون وجهها عن لون يديها، كأنّها دهنت وجهها بتفاصيل لم تكن من طبعه.

لا أدري من أين أتى المدير بتلك الأوصاف؟

قلت:

– كما ترى.

قال بعد أن بلع ملعقتين من الحساء الساخن:

– اسمع. أنا أصابتني العين في العلاقة الجسدية. صحيح أنّ عمري تجاوز الستين بكثير، لكنّي كنت مجتهداً وعظيماً، وسبع ليل كما يقولون. أنا منهار حالياً، وقد بحثت عمّن يزيل تلك العين لكن لم أعثر على واحد جيّد، زرت كثيرين في الواقع، وخطر لي أنّك قد تعرف أحداً.

معلومات كثيرة دفقها في أذني من دون أن يتوقف، أو يحسّ بالاستياء من نفسه، لكونه يصارح موظّفاً صغيراً في إدارته بمسألة كبيرة كهذه. من المؤكّد أنّ لديه أصدقاء أعمق وأفضل وأقرب للتفاؤل الحذر من شخص في وضعي، يجيد هزّ الرأس سلباً أكثر من أيّ شيء آخر، لكن يبدو أنّ الرجل يظنّ أنّه اختار شخصاً لن يخذله، وأنا لا أعرف إن كنت أستطيع أن لا أخذله. كان بإمكاني أن أحدّثه عن الشيخوخة التي ظنّ أنّه تغلّب عليها بحلاقة اللحية، وصبغ الرأس والشارب، والمشي بحذاء مقلّد لماركة «سانتوني»، صنعه «حركات» الإسكافي في سوق أمدرمان القديم، أن أخبره أنّها داء مثله مثل أيّ داء آخر قد يعطّل مشاريع كثيرة مثمرة. خفت مجدّداً من أن يختلط الاجتماعي بالرسمي، فقلت:

– ليس في ذهني أحد حالياً، لكن سأعثر، لا تقلق.

ابتسم المدير. كانت المرّة الأولى التي أرى فيها ابتسامة مشقوقة في الوسط. نعم، هكذا خُيّل لي، بعد أن قارنتها بابتسامات عديدة كان يبتسمها في أوقات مختلفة، ولم تكن مثلها.

أكملنا غداءنا. هو أكل قليلاً من الخبز والجرجير المغموس في عصارة البنجر، وأنا أكلت ما استطعت معرفته من قائمة الطعام

المثبتة أمامي على الطاولة. كانت المرّة الأولى التي أسمع فيها بالسلطعون، والكمأة، والتوتاب، وشيخ المحشي، وكباب الشيلو الفارسي. تُرى هل يستحمّ مدّعو الرفض هؤلاء؟ كنت أنظر إليهم يأكلون بلا قواعد، أو ربّما بقواعد يعرفونها وحدهم، وأتخيّل سوساً حقيقياً يتناسل في فروات رؤوسهم، أتخيّل الوسخ واللامبالاة في سراويلهم الداخلية، وكيف يمكن لأيّ صرصور مغامر أن يرعى تحت ثيابهم من دون أن يلحق به أذى.

كانت مفاجأة حقيقية لي أن شاهدت العجوز السجّان الذي كان يتأرجح على الكرسيّ المكسور في بيتي، يدخل في تلك اللحظة. كان متأنّقاً في ثياب شبابية زرقاء، يحمل مسبحة لماعة بين يديه، ويتحدّث إلى فتاة بعينين كبيرتين ترافقه.

سألني المدير، وقد انتبه إلى اهتمامي بالعجوز، وكيف تركت نظراتي تتفرّغ للنيل منه:

– هل تعرفه؟

– لا.. ربّما أكون رأيته مرّة. من هو؟

– إنّه الرقيب أول حمّاد.. رجل أمن من طراز نادر.

أيّ نوع من الندرة وهؤلاء جميعهم يشبهون الأشياء المالحة... أيّ نوع من الندرة وتخميني في حق الرجل حقيقي... فهو سجّان، وسجّان متخم بالامتيازات التي تجعله زبوناً لمطعم أمازون. في لحظة بائسة مثل هذه، كان لا بدّ من أن أتذكّر سعد نزوة، ومزاحه السخيف، وتوريط بيتي المسالم بشخص مثل هذا، وآخرين ما كان لي أن ألتقي بهم أبداً، ودروبي في الحياة مختلفة عن الدروب التي يسيرون فيها. صحيح أنّه أنكر معرفته بهم، لكنّي لم أصدّقه. لا أحد يدخل بيوت الآخرين إن لم يفتحها لهم أحد ما.

أوصلني إسماعيل بسيّارته الفولكسواجن بيتلز الصغيرة الصفراء اللون إلى حيث أعثر على مواصلات تأخذني إلى بيتي. كنت سعيداً رغم كلّ شيء، أحتفظ في ذاكرة بطني بقائمة طعام مدهشة قد لا أعود لتذوّقها مرّة أخرى..

6

كنت أفرغ حقيبتي الجلدية القديمة من الملابس التي كنت قد جهّزتها للسفر إلى خور عاج، أعيد ترتيبها في خزانتي الخشبية التي تحتلّ جزءاً لا بأس به من الغرفة، حين سمعت نقراً خفيفاً على الباب.

كانت الحقيبة ممتلئة تقريباً، فيها سراويل وقمصان وملابس شعبية بيضاء مطلوبة بشدّة في القرى كما أعرف. فما زال كثير من القرويين يعتبرون اللبس العادي الذي يحتوي على قميص وسروال، أو بدلة كاملة، من مهازل الاستعمار التي بذرها في البلاد وأساء بها لشعبنا. وكنّا قد دُعينا مرّة إلى مدرسة ثانوية لمشاهدة أوبريت غنائي عن أصالة الريف، وكان في الحقيقة أوبريتاً جحشاً كما خطر ببالي في لحظة مشاهدته، لأنّ الأبيات التي تذمّ المدينة وملابس أهل المدينة كانت تشكّل كلّ الأوبريت تقريباً بينما أصالة الريف جاءت في كلمتين أو ثلاث.

أنهيت تفريغ الحقيبة، وبدأت أنكش في الجيوب الجانبية، فعثرت على تلك المحفّزات كما سمّيتها ساعة اشتريتها. إنّها أشياء بلا قيمة، إن حاولنا تقييمها، ولكنّ لها قيمة كبرى، إن امتلكناها بلا توغّل في تفاصيل أخرى. كانت ملابس نسائية من حرير لمّاع، وعطراً

نسائياً من ماركة لولو حبشية، الذي يُستورد من أثيوبيا، ويُخلط عادة مع عطور أخرى للحصول على نكهة مدرّة للشبق، وصندلاً بكعب عالٍ وردي اللون، وامتدادات للشعر تجعله طويلاً مسترسلاً، كانت تباع على أرصفة الشوارع. أنا لم أفكّر في تلك الأشياء، ولا كانت لديّ قناعة بأنّني بحاجة إليها باعتباري شخصاً سويّاً ناضجاً، ومتعجرفاً في ما يخصّ المرأة، وليس لديّ احتياجات كثيرة عندها. هي أوقات رغبة تأتي وتذهب، ويوجد بيت عشوائية القريب من بيت سعد نـزوة، وعشرات البيوت غيره، تتكفّل بحماية المجتمع من نزوات المشتهين، لكنّ سعد نزوة كان مسافراً معي، وأقسم أنّ تلك الأخطاء، لن يفهم أحد صحّتها إلّا إن عاش في عزلة. «لن تخسر شيئاً»، قال ورافقني إلى حيث لممتها وأخفيتها في جوانب الحقيبة. عموماً لن تضرّ، وحتى لو لم أستخدمها في خيال أو حلم يقظة، فقد أهبها لأحد ما، رجل أو امرأة، لا أدري.

رفعت القميص النسائي بين يديّ، وتأمّلته، كان بألوان الطيف، وغير محتشم، وفيه عشرون فتحة يمكن أن يتسرّب عبرها الإغواء الجسدي، استحيت من نفسي، أبعدته عن عيني، وحشرته مع بقيّة الأغراض في قاع الخزانة. وكأنّما كان لذلك القميص وحيه الشفّاف، فقد تذكّرت فجأة قصّة مديري إسماعيل، ورغبته في استعادة حياته المنطفئة، وأنّني وعدته بالبحث عن مساعدة. كنت قد نسيت، لكنّي الآن تذكّرت، وبرق في ذهني خاطر.

نهضت لأفتح الباب. كانت الصالة لا تـزال مرتّبة، وقد اضمحلّت رائحة حوائطها المصبوغة وحلّت محلّها رائحة المطبخ الذي استخدمته في اليومين السابقين من دون أن أعيد تنظيفه.

كانت مفاجأة لي أن عثرت على التائه، يقف على قدمه اليسرى، وقد رفع اليمنى، ووضعها على الركبة اليسرى. كان يرتدي

قميصاً أحمر مقلّماً، وذلك السروال القصير الممزّق. أدخل يده في جيبه، أخرج بطاقة صغيرة مدّها لي:

– انظر يا سيّد، لم أخدعك، أليس كذلك؟

تأمّلت البطاقة، كانت صادرة حديثاً من وزارة الداخلية، وكان مكتوباً عليها في مربّع الاسم: «التائه عوض سعيد»، وفي مربّع الوظيفة: «فنّان شعبي».

– إذن غيّرته بالفعل؟

– طبعاً.. قلت لك سأستخدم ما تقترحه.

– واسمك الفنّي، ماذا ستفعل به؟

ضحك. ضحكته أكثر قذارة ممّا مضى، ورائحة أنفاسه بدت مخيّبة للآمال. تُرى هل عوض سعيد أبوه فعلاً، أم هو أول اسم خطر بباله؟ أو لعلّه شخص صادفه في إدارة تسجيل المواليد والوفيات، حيث لا بدّ أن يذهب أولاً لاستخراج شهادة بالاسم الجديد، واستعار اسمه، أو انتزعه بطريقة أو بأخرى. لكن ماذا كان اسمه الأصلي الذي استغنى عنه؟ وأسماؤه البديلة التي استغنى عنها أيضاً؟ أين عائلته؟... مؤكّد سأعرف في يوم ما. ردّ:

– لم يكن لديّ اسم فنّي يا سيّد، لا تقلق، لكنّي متفائل بالاسم الذي أطلقته عليّ، ربّما يفيد.

لم أسأله عن عبد العال، وأتوقّع أنّه مسترخٍ في ظلٍّ ما يدخّن سيجارة محرّمة، أو مندمج في إثم آخر داخل بيته الذي لم أستطع أبداً أن أخمّن كيفية الحياة فيه. كان البيت الوحيد في الحيّ الذي سقطت أجزاء من حوائطه، واعتادت الأغنام والكلاب المتسلّطة أن تدخله وتخرج منه وأيضاً تتناسل فيه، من دون أيّ حرج..

كنت على وشك إنهاء وجود التائه أمام بابي، والعودة إلى مشاغلي حين سمعته يقول:

– كان هناك رجلان يسألان عنك هذا الصباح، ولم تكن موجوداً.

– رجلان؟ ما هيئتهما؟ ماذا يريدان؟

توتّرت، وعندي قابلية للتوتّر كلما طرأ تعديل، ولو طفيفاً، على مسرح حياتي، أو اللغة اليومية التي أخاطب بها نفسي وعدداً محدوداً من الناس. لا أحد في الحيّ يسأل عنّي أبداً، ذلك أنّني ببساطة لا أسأل عن أحد، ومن يأتي من أقاربي، أو معارفي، أعرف قبلها بمدّة أنّه سيأتي، وبالتالي أجهّز مزاجي لاستقباله، أو عدم استقباله. الوحيد الذي كان يزورني من حين لآخر، هو سعد نزوة، وهذا مكسور القدم في بيته.

– ما هيئتهما يا تائه؟

أعدت السؤال مرّة أخرى وقد مددت يدي، هززت بها كتف الصبيّ، بينما أنزل قدمه إلى الأرض، حشر يده اليمنى في جيبه، وأخرج سيجارة مشوّهة الأطراف، أشعلها بعود ثقاب.

– هيئة غبيّة.. وأحدهما جرح شاربه مثل عبد العال.

ضحك. ضحك كثيراً، وسعل. كان سعاله أكبر من سعال صبيّ لم يصل العشرين بعد، وانتبهت إلى أنّه نحيف جدّاً، وبلا أنفاس تقريباً، وفكّرت في حملة مكافحة مرض السلّ التي شاركت متطوّعاً فيها منذ سنوات. كان من قواعد تلك الحملة البحث عن الذين ضيّعهم المجتمع، بغرض حمايتهم وإنقاذهم، أو علاجهم إن أصيبوا. الآن مع الأسف، توقف ذلك الطبع المجتمعي، وازدهرت معايير واطئة كثيرة. لن يبحث أحد عن التائه ليتأكّد من لياقته، وهذا مؤسف.

– اسمع.. هل تذهب إلى المستشفى لتفحص رئتيك إن أعطيتك نقوداً؟

ألقى ربع السيجارة المحترق من يده، بحث في جيبه وأخرج ربعاً مشوّهاً آخر، أشعله وأجاب:

– أحبّ النقود، وأكره المستشفى. أحبّ الممرّضات وأكره التمريض.

– لكنّ صدرك يبدو مريضاً.

– من قال ذلك؟ صدري واسع، أتقبّل النقد.

ضحك بترف. منذ سنوات لم أرَ شخصاً يضحك بتلك القوى الخائرة. كان سعاله بغيضاً جدّاً. سعال رئة فقدت مصداقية العطاء منذ زمن. وفي هذه الحالة لا شيء يمكن فعله. لا إضافة.

وأنا أهمّ بإغلاق الباب، انتبهت إلى أنّ سلوى بطرس قادمة في اتّجاه بيتها، تحمل سلّة بدت ثقيلة على يد امرأة. فكّرت في الإسراع إليها ومساعدتها، لكنّي لم أفعل، بل قلت للتائه: «ساعد تلك المرأة»، فاغتاظ، كان يعرف تماماً أنّه لن يستطيع مساعدة أحد. صاح فجأة:

– الغبيّان هناك.

وفي بداية الشارع، كان ثمّة رجلان يرتديان ملابس شعبية بيضاء، ويمشيان بنشاط وقوّة في اتّجاهنا.

7

كان قسم الشرطة الذي ذهبت إليه هذه المرّة، مع الشرطيين المرتسمين في الثياب المدنية، قريباً من بيتي إلى حدّ ما، وصلنا إليه مشياً في عشر دقائق فقط. والرجلان ليس لديهما أيّ فكرة عن سبب استدعائي، لا يعرفان أيّ ضغينة من الشرطة تجاهي، ولا مَن أنا أصلاً، حتى إنّ أحدهما اعتذر بشدّة، لأنّ يده القويّة المدرّبة على الغباء أحياناً امتدّت لا إرادياً وضغطت على مساحة كبيرة من عنقي، وسلّفني منديله الأحمر المشبع برائحة النفتالين كي أمسح العرق المتقاطر على وجهي، ولم يكن هناك عرق متقاطر على وجهي، كما عرض حبّتي أسبرين لإزالة صداع رأسي، ولم يكن لديّ صداع، وحاول أن يرشّ عليّ بعض العطر الفاخر، ولم يكن لديه عطر فاخر أو غير فاخر، وفي النهاية نقل لي إعجابه الشديد بأغنية شديدة الخفقان لإبراهيم عوض، سمعتها مرّة عبر أسطوانة من شركة «منصفون»، ظانّاً أنّها أغنيتي المفضّلة.

– هل سنكون أصدقاء؟

سألني وأسنانه محمّصة بفعل التبغ، وخطوط بيضاء في لسانه كأنّها طحالب أو فطريات أو بقايا قبل مسمّمة، اختلسها من هنا وهناك.

– لا.

قلت بحزم، وواصلت المشي.

لم أكن في الحقيقة خائفاً، ولا خطرت بذهني أفكار مسمّمة أو واطئة. كلّ ما فعلته أنّني مشيت أتبع الرجلين بينما أسمع خطوات التائه المريضة تترنّح من خلفنا. ثمّ التفتّ بغتة لأجد سلوى بطرس، حافية القدمين، تحمل صندلها في يدها، وتتبعنا أيضاً. سرت قليلاً، والتفتّ مرّة أخرى، وأمرت التائه: «اسكت»، وكان يردّد أغنية «حماة الديار»، وصوته الآن محروق، أو قريب من الاضمحلال بسبب أزيز التنفس.

قبل أن ندخل القسم، فوجئت بسلوى بطرس تلتصق بظهري، كانت أنفاسها معطّرة، رائحة عرقها غالباً أخفيت بمهارة بواحد من تلك الدهانات المحتالة، وثمّة نتوء في جسدها، أحسست به ساخناً على كوعي الأيسر. كانت المرّة الأولى التي تقترب منّي هكذا، وغالباً ستكون الأخيرة، لأنّني سأنتف شعر إغوائها، لو فعلت ذلك مرّة أخرى. همست:

– لا تنزعج يا صلاح، ستخرج من هنا حتى لو كنت قاتلاً، أعدك بذلك.

قالت صلاح، ولم تقل علي صلاح، وبالرغم من أنّ الأمر ليس مهمّاً، أحسست بغرابته. تُرى هل هي أجنبية؟ هل قدمت من دولة خانقة لدولة خانقة أخرى؟ هل لديها فعلاً نفوذ في مكان ما تستطيع استغلاله متى شاءت؟

رفعت صوتها قليلاً، وقد أبعدت النتوء الآن عن كوعي الأيسر، وألصقت نتوءاً آخر أكثر حرارة على كوعي الأيمن:

– سلامات يا جارنا العزيز.

في الحقيقة لم أسترح لذلك التطوّر العشوائي في قضيّة خاصّة جدّاً، هي قضيّة اقتياد إنسان إلى قسم الشرطة بطريقة مهذبة جدّاً، رغم شائبة ضغط العنق تلك، وأستطيع أن أقسم أنّني لا أحتاج لمساعدة من أحد، خاصّة هذه المعالجة الروحية... آه... المعالجة الروحية! تذكّرت مشكلة المدير إسماعيل، التي ربّما تملك تلك المرأة حلّاً لها... لكنّي لم أقل شيئاً. وأنا على وشك الدخول للقسم قالت:

– بئر الصرف الصحّي في بيتنا طافح منذ أمس، وعمّال البلدية تأخّروا في الحضور، أعطني مفتاح بيتك لو سمحت، أمّي مصابة بالسكّر، وتئنّ من ضغط المثانة.

مددت يدي إلى جيبي، ناولتها المفتاح ودخلت. كنت واثقاً من بيتي بشدّة، واثقاً بأنّ لا شيء فيه يلفت النظر، أو يغري بسرقته.

كان الشاويش الموجود في القسم، في تلك الساعة، مسنّاً وعلى وشك أن يتقاعد، أو ربّما تقاعد بالفعل لكنّه تُرك في الخدمة لأسباب خاصّة. أعرفه منذ زمن طويل، أيّام كنّا صبياناً. كان يأتي إلى حيّنا ملثّماً ونحيلاً، وسريع الخطوات، ليزور امرأة منحرفة لم تكن زوجة ولا أمّاً لأحد، وتبدو شديدة الشبه بلا أحد تقريباً. الشاويش اسمه كمال الدين، والمرأة المنحرفة تناديه «الشطة»، ولا أدري هل ما زال يملك ذلك اللقب الساخر، أم تنصّل منه بعد أن كبر وماتت العشيقة القديمة.

كان مكتب التحقيق غرفة صغيرة، راكدة الهواء، فيها طاولة قديمة، ومقاعد بلا ظهر، وثلاثة أشخاص في ثياب مدنية يحيطون

بالشاويش، ربّما كانوا من الشرطة، أو مجرّد غوغاء يصادقون الشرطة، ويهمّهم جدّاً أن يلتقطوا شائبة ما لينشروها في المدينة. قلت:

– مرحباً حضرة الشاويش، وأوشكت أن أقول الشطة، لكنّي أمسكت الكلمة في آخر لحظة. لم يردّ. كان غير مشغول بأيّ شيء، ومع ذلك لم يردّ. فتح درجاً صغيراً على الطاولة، أخرج أوراقاً عليها كتابة بخطّ مزعج، وضعها أمامه، ثمّ واجهني. سألني عن اسمي وعنواني وحالتي الاجتماعية، ووظيفتي، وإن كنت عضواً في الاتّحاد الاشتراكي، حزب الجميع، أو أيّ حزب معارض هدّام يتخفّى في السرّ، وأضاف:

– قضيّتك حُوّلت إلينا من قسم شرطة حيّ المستشفى، هناك شهود لمّحوا إلى أنّك قد تكون والد نميري.

– نميري؟ الرئيس القائد؟

تسارعت أنفاسي بشدّة، واهتز فيّ وحولي كلّ شيء قابل للاهتزاز داخل شخصٍ وخارجه: القلب، الرئة، المصارين، الساقان، اليدان، الشعر، الرؤية، النعرة القبلية، ما أعرفه وما لا أعرفه... لا بدّ أنّ هناك سوء فهم كبيراً، لا أحد باستطاعته أن يصبح والداً لرئيس مثل جعفر، حتى والده الحقيقي، غالباً سيهتز لو قيل له أنت والده.

كان الشاويش ومساعدوه قد استيقظوا من ركود الاستجواب العادي، وقفزوا بسرعة إلى دوار قاتل.

– اسكت.

كانوا يصرخون في وقت واحد، بينما اقترب الشطة من حنكي وسدّه بثلاثة أصابع قويّة برغم سنّه المتقدّمة.

– نميري الطفل يا أخي، الطفل الذي كان ملقى وسط الأوساخ في حيّ المستشفى.

آه.. نصيري.. نصر الدين.. نميري... نميري... نميري.

استعدت أنفاسي بصعوبة، والشطة ومعاونوه استعادوا أنفاسهم أيضاً، لدرجة أن هاجمت أحدهم سنة من النوم، لأنّ ثمّة شخيراً ارتفع بغتة في المكان. لكنّي لست والد نميري، لست والد أيّ شخص آخر، وغالباً ليس لديّ نيّة في ولادة أحد.

– ما هو دليلكم على أنّني أبوه؟ ما هو دليلكم؟

– شوهدت تحنو على الطفل، تتحسّس رأسه ويديه، وأقسمت المرأة التي كانت تحمله، أنّك بكيت. هل يؤنّبك ضميرك إلى هذه الدرجة؟

خاب أملي في الشطة، وفي حكمة من تجاوزوا الخامسة والستين، ومرّت عليهم آلاف التجارب. هذا ليس تفسيرَ محترفٍ في مطاردة الإجرام، لدرجة أنّه هو نفسه كان مجرماً، يتسلّل خفيفاً وملثّماً وثابت القلب إلى بيت امرأة منحرفة، وبشكل شبه يومي. هل الحنوّ على رضيع دليل أبوّة له؟ هناك آباء لا يعرفون الحنوّ، ولم يسمعوا به على الإطلاق، وآخرون عرفوه بعد أن تجاوز أبناؤهم مرحلة الحاجة إليه، وأصبحوا ناضجين كفاية، ومستعدّين لخنق أيّ حنوّ ناعم يحسّون بوجوده يتحاوم قربهم. «ما هكذا تورد الإبل»، هذه جملة قديمة، لم يعد أحد يستخدمها الآن، لكنّي أحتاج إليها في هذه اللحظة.

قلت:

– ما هكذا تورد الإبل يا شاويش كمال الدين.

والشاويش، بدا منطفئ الفهم، ردّد:

– إبل من؟

– إبل كانت في الجاهلية.

– جاهلية من؟

– جاهلية العرب.

– أيّ عرب؟

– لا عليك، ضربت مثلاً فقط، أردت القول إنّ الحنوّ على مسكين ليس جريمة، ولا يثبت أبوّة الحاني له. أتدري ما الذي سأفعله؟ سأقاضي الشرطة، أقسم بذلك، أنا موظف عامّ، وأعرف محامين يستطيعون إغلاق قسم الشرطة هذا، وأيّ قسم شرطة آخر فيه غباء، وإضاعة للوقت.

لم أنتبه لصراخي إلّا بعد أن صرخته كلّه، وعاودني احتقان البروستات الذي يعاودني كلّما استخدمت صوتي بنبرة أعلى من المعتاد. وكنت قد سألت طبيباً متخصّصاً من قبل عن العلاقة بين الحنجرة والبروستات، فأجابني بكلّ جدّية: «علاقة حبال صوتية سخيفة، بغدّة متخلّفة عقلياً».

لم أحتج بعد ذلك إلى أكثر من دقيقتين، لأتلقّى أولاً اعتذاراً فخماً من الشاويش الشطة، فيه احتضان وقبلة على الرأس، وتبريراً بأنّ ذلك مجرّد إجراء عادي لمصلحة التحقيق، وليس اتّهاماً بشيء، ووعداً بأنّه سيطلعني على ما يستجدّ في الأمر. أيضاً ألقى الشاويش أوامر مباشرة لأحد معاونيه بأن يسرع إلى أقرب بقالة ويحضر زجاجة مرطّبة من مشروب بيانكا بنكهة الموز، وبأن يشعل لي سيجارتي حتى لو لم أكن أدخّن. وكانت النتيجة أن شربت البيانكا بتلذّذ، وأنا أحدّق في وجه الشاويش، وأتخيّل عدد الجروح التي يمكن أن يستوعبها شاربه العريض، لو استخدم موسى تالفة كالتي استخدمها عبد العال. مشى معي الشرطي الذي أحضر البيانكا إلى بيتي، وصوت أعواد الثقاب يدندن في جيبه، ويده في وضع من سيشعل ناراً، إلى أن عثرنا على التائه، جالساً على عتبة البيت. كان يبدو مكتئباً، متوقعاً حدوث شيء ما لم يصرّح به. قلت للتائه:

– لديك نصف سيجارة في جيبك؟

– ربع فقط.

– أعطني إيّاه.

وضعته في فمي، وأسرع الشرطي بإشعاله، وانصرف لأناوله للتائه ومعه جنيه من المعدن.

لم يكن عبد العال قد ظهر بعد، وسلوى بطرس مؤكّد نسيتني، وتستمتع بالحياة الرغدة في بيتي مع أمّها. وأعني بالحياة الرغدة هنا وجود مرحاض بلا بئر طافح، وربّما بعض الفواكه والخضروات في ثلّاجة الكلفينيتور العتيقة. قالت سأخرجك من هناك، ولم تفعل، وأخرجني ذعر الشرطة وما سبّبته لأفرادها من إزعاج. لقد حنوت بالفعل على نميري، وكنت أظنّ أنّ اسمه نصيري، لكنّي لم أبك كما قالت المرأة للشرطة. سأزور حيّ المستشفى مرّة أخرى لأرى ماذا يحدث هناك، وإن صادف أن عثرت على سميّة فسأبادلها النظر المحبّ، وإن لم أعثر عليها فلا مشكلة.

أمّا بالنسبة لخروجي من الاتّهام، فأعرف تماماً أنّ الشاويش لن يعثر على ما يربطني بالأمر، وأيضاً لن يعثر هو ولا غيره على والد الطفل، ولا حتى على أمّه. فالمجتمع شرّيرٌ في بذر الأخطاء، وأيضاً في تغطيتها بحيث تظلّ مدفونة هنا وهناك.

وبالفعل، في آخر الليل، جاءني الشاويش كمال الدين. كان في ملابس مدنية، بعيدة عن الأناقة، وتظهره جدّاً حقيقياً، من المفترض أن يبتعد الآن عن تسلّق عربات اللاندروفر القديمة، والركض وراء الآثام، ومحاولات العثور على دوافع ومشاكل وأشياء بشعة. لم يدخل البيت وحدّثني بودّ، ذاكراً أنّ تحقيقاً عميقاً أجري باقي اليوم، وأن لا شيء يربطني بالولد. هي تخاريف أشخاص، ولا شيء آخر، وأنّهم يسعون خلف الأب والأم. قال ويده السميكة اشتبكت بكتفي الهشّة:

– تمنَّ لنا التوفيق حضرة الضابط الإداري.

8

وصلت إلى حيّ المستشفى القديم في بداية الصباح.

لم أكن أبحث عن نظرة هائمة أو مبهجة أو حتى عادية بلا إشعاع من عينَي سميّة رمضان، كما قد أتوقع أنا نفسي، ويتوقع صديقي سعد نزوة، وكلّ من يعرف بقصّتي الصامتة، التي لن تنطق أبداً. كنت أبحث عن الطفل نميري، وعن ممارسة بعض حيل الحنوّ تجاهه، وربّما الانغماس في المأساة أكثر، إن عثرت على خيط، والبحث مع الآخرين عن أمّ آثمة، ووالد شبع وتقيّأ وفرّ.

وكنت قد سألت نفسي قبل أن أخرج من بيتي وأتوجّه إلى محطّة الباصات عن السبب في اهتمامي بذلك الولد الذي صنّفته بلا مستقبل. فكلّ الأطفال الذين يولدون هكذا يكبرون إمّا بلا مستقبل، وإمّا بمستقبل مهروس بالدموع والرغبات غير المجدية. ربّما هزّتني صورته، وهو بين يدَي المرأة المسنّة التي كانت ترضعه الحليب من زجاجة متّسخة، ربّما البثور الحمراء في يده، ربّما خدّه الذي ينبغي أن يقرصه أحد برقة... الشاويش الشطة كان يعرف أنّني لست والده، ويعرف أنّه لن يعثر على والده في الغالب، ومع ذلك جرّني إلى تحقيق مهلهل، مؤكّد كي يكتب تقريراً ما، وتلك عادة الشرطة والأجهزة

الأمنية عموماً، أن تكتب تقارير في أيّ شيء، وأن لا تظلّ القضايا مفتوحة بورق أبيض. ولو لم ترد سيرتي من قبل الشرطي البدين الذي احتقرت منهجه في ترك العورات مكشوفة، والمرأة الخمسينية التي كذبت وادّعت بكائي أثناء تحسّسي آلام الطفل، لعثروا على أب آخر، استخدموا اسمه دقائق في أيّ ورقة من أوراقهم، وربّما ضربوه ومرّغوا وجهه في التراب، واعتذروا له بعد ذلك. قال الشاويش أثناء توضيحه للأمر أمام بابي: «تمنَّ لنا التوفيق»، ولم أستطع أن أتمنّى له التوفيق، ذلك ببساطة أنّ الأمنية قطعاً خاسرة.

لماذا يا تُرى سمّته المرأة نميري، وهناك آلاف الأسماء يمكن أن تحتفي برضيع ضائع، احتفاءها نفسه برضيع مكبّل بالحنان الأسري؟

لماذا نميري بالذات؟ لم تكن ثمّة إجابة، أو ربّما لم يكن هناك خيار أفضل، فمن المعروف في بلداننا أنّ أسماء الرؤساء شديدة اللمعان حتى لو كان الرؤساء بلا أيّ مقوّمات تشجّع على تسمية المواليد بأسمائهم. كانت ترد مباشرة إلى الذهن بمجرّد أن يولد ذكر في العائلة، وغالباً تُستخدم، وأحياناً قد ترد ولا تُستخدم بسبب وجود متطرّفين أو سجناء رأي في العائلة، يهمّهم جدّاً أن لا يحمل أحد الأفراد اسماً يعتبرونه فضيحة. وفي العام الماضي، أقامت أسر عدّة معروفة احتفالات كبيرة، أعلنت فيها أنّها نظيفة من التلوّث البيئي والاجتماعي الذي فُسّر بعد ذلك، بأنّه يعني أسماء رؤساء الدول، والمطربين ولاعبي كرة القدم.

كنت قد أيقنت بعد محنة الأيّام الثمانية التي قضيتها متأفّفاً وكئيباً تحت وطأة سلوى بطرس وأمّها غالية عبد السيد، عضو الاتّحاد الاشتراكي سابقاً، ومنسّقة لجان المقاومة ضدّ معارضي الحكومة كما كانت تدّعي، من دون أيّ أدلّة ولا مؤهّلات، ولا حتى مرتديلا أو لانشون مستورد من ذلك الذي تستخدمه التحالفات الاستراتيجية،

والطغمة المنغمسة في وحل القادة، والشبع حتى القاع، أيقنت أن لا فائدة من الحبّ، حتى لو كان مستعراً، لافحاً، رائع الجمر، وأنّ أيّ تناغم صامت مع امرأة هو في الحقيقة تساهل مخلّ في الفيسيولوجيا، لا ينبغي أن يستخدمه إلّا الشعراء وضيّقو الأفق، والنفسانيون العالقون في لذّات متخيّلة وأحلام قليلة الحظّ بصورة مريعة.

لم يكن استخدام مرحاض بيتي عملاً طارئاً ليوم أو يومين كما كنت أتصوّر، بل استمرّ كعمل يومي متكرّر، ويمكن أن يحدث مرّات عدّة في اليوم، أحصيتها مرّة وأنا أراقب الأمّ العجوز، لأجدها عشرين استعمالاً كاملاً، تستطيع أن تسمع فيه صوت النحنحة ورياح الهضم والأصوات الطفيفة الأخرى التي يمكن أن تحدث داخل مرحاض. حتى ضيوف سلوى كانوا يأتون، وأصدقاء ضيوفها كذلك. وقد سألني أحد هؤلاء في يوم مكتظّ بالراغبين في دخول المرحاض، إن كنت أكسب جيّداً من تأجير هذا الكنز الصغير، لأنّه رجل أعمال، وينوي افتتاح مرحاض تجاري في السوق، أو وسط المدينة قريباً من موقف الباصات الرئيسي. وحين أخبرته بأنّ مرحاضي متطوّع في خدمة الغير بلا مقابل، استغرب فعلاً، كان أكثر المستغربين الذين صادفتهم في حياتي ثراءً، والتفت إلى الحائط وشتمه بأقذع عبارات ممكنة.

وفي خطوة اعتبرتها ضرورية جدّاً لاستعادة هدوئي ومجد العزلة الذي توّجت به نفسي منذ زمن طويل، وأيضاً لإعادة اقتناص حالات الفرح أو الحزن، أو حتى الهستيريا التي ربّما أتسربل بها أمام نفسي، واجهت سلوى بطرس، وكانت أمامي في ثياب بنفسجية قصيرة، لكن ليست شفّافة، وبين يديها مجلّة أوروبية متخصّصة في الموضة لذوي الإعاقات والأمراض المزمنة، مثل فساتين سهرة لمريضات داون سيندروم، وسراويل واسعة مع عصيّ بألوان السراويل لذوات الإعاقة البصرية، وصنادل بكعوب ذكيّة لا تنثني أو تتآكل تحت ثقل

سيقان النسوة البدينات بفعل تكاسل الغدد الدرقية وأمراض تعب الكبد، وكانت قد أخبرتني مرّة أنّها تدرس مشروعاً عن الاستفادة من الإعاقات والأمراض، والعادات الغريبة، وحتى البلبلة، وتشتّت الذهن، في عمل يأتي بدخل لا يُصدَّق.

قالت وفي عينيها فرح خطر: «حتى الجروح المزمنة بسبب البكتيريا المقاومة للمضادّات الحيوية لها شاش مفصّل بطريقة خاصّة، يظهرها مثل الابتسامات». قالت: «لن تصدّق إن قلت لك إنّ مليونيراً قاتلاً في أميركا اشترى الكرسيّ الكهربائي الذي سيُعدم عليه، وحوّله إلى تحفة ما زال ورثته يعرضونها في غرفة خاصّة يدخلها الزوّار بتذاكر غالية».

وجهها ليس جميلاً جدّاً، لكنّه جميل فقط. جسدها أتوقّعه بلا عاطفة ولا إحساس، وفيه بقع إثارة كذّابة. تبتسم أو تكشّر بحسب المزاج، وثمّة فراغ طفيف بين نابين في فكّها الأسفل، أظنّه صناعياً، لأنّ موجة الفراغ المحفور في تلك المنطقة كانت قد انتشرت بشدّة، بوصفها سمة من سمات الجمال المتكبّر الذي سيرد ذكره في هلوسات الشعراء. لم تكن تضع حلقة ذهبية على أنفها أسوة بنساء في وضعها الاجتماعي الهشّ، لكنّ أمّها تضع.

قلت لها:

– أكيد لن تتزوّجيني.

ردّت على الفور، ونظراتها متوقفة عند دجاجة شقيّة مؤكّد دخلت بيتي مع من دخله في ذلك اليوم، والآن خرجت تتقافز في الشارع:

– لمَ لا؟ أتزوّجك بلا شروط، والآن فوراً إذا أردت..

أحسست بالفزع، وبألم في أحد الأضراس، ولم أكن متأكّداً إن كانت الصرخة العالية التي سمعتها أتت من بيت جاري المعروف

بكثرة خروج الصراخ من بيته، أم من داخلي. طلبت منها على الفور أن تتريّث، وأن تستخير، وأن تطلب النصح من عند أهل وأقارب، وحتى من دجّالين لا يملكون أخلاق الدجل القويمة ويدّعون أنّهم ساعدوا في صياغة الحلم السوداني العريض، وأعانوا عدداً كبيراً من المطربين في تلحين أغنياتهم.

لم تلتفت إليّ، كانت ما تزال تتابع الدجاجة الشقيّة التي عثرت على فأر مذعور، يتحرّك بحذر محاولاً دخول أحد البيوت، وبدأت تشاكسه: «أتزوّجك بلا شروط».

هنا كان لا بدّ من ردعها، من تمزيق جدّيتها إن كانت جادّة، أو الاستخفاف باستخفافها إن كانت تستخفّ. رفعت صوتي كثيراً، سارداً عليها لائحة استخدام المرحاض الجديدة التي أعددتها سريعاً في ذهني، والتي لا تساهل في تطبيقها أبداً: «مرّة في اليوم لحضرتك، وثلاث مرّات للأمّ العجوز، من أجل خاطر مرض السكّر الزفت، وصفر في اليوم لأولئك الضيوف الذين لم يهتكوا ستر المرحاض فقط، لكنّهم انتبهوا لكلّ حسنات البيت وعيوبه، بما في ذلك تلك التي لا أعرفها شخصياً. عثروا مثلاً على جحور خفيّة في الحوائط، تؤوي قبائل من النمل النادر المرشّح للانقراض، وتماثيل من الطين داخل شق في الجدار يعود تاريخها إلى حقبة بداية الأربعينيات، حين كان الأطفال في البيوت رائعين وفنّانين ويعرفون ثقافة الطين جيّداً، كما أخرج المستثمر، الذي أراد بناء مرحاض تجاري في مكان مزدحم، حفنة من التراب الذهبي كانت داخل صرّة تحت بلاط غرفة نومي، شمّها طويلاً، ثمّ وضعها في جيبه. قلت أعدها إلى مكانها يا سيّد، لكنّه لم يفعل قال: هذا تبر، ولا تعلم بأمره، إذن لا تملكه».

قلت بعد أن هدأت قليلاً:

– أنت متخصّصة في الإحصاء؟

تعمّدت أن أخترع لها عملاً آخر، بعيداً عن عمل المعالجة الروحية الـذي سمعت بـه، أردتـها أن تغتاظ، وتخبرني عن عملها وهي مغتاظة.

– إحصاء السكّان؟ إحصاء العاطلين عن العمل؟ إحصاء البلهاء والرجرجة، وعابري السبيل وعاهرات حيّ سليمة ودفان؟

لوت حنكها وبصقت، وكأنّني وضعت على لسانها مذاقاً مقرفاً، كأنّني سمّمتها بالسؤال. ثمّ قالت:

– أنا معالجة روحية يا سيّد، أداوي الناس من السحر والعين، والحسد، وطعم علاجي مثل طعم البرتقال المشويّ، كلّ ذلك الوقت ولا تعرف؟

– لا أعـرف، أنـت لم تخبريني، ولـم يخبرني أحـد من الذين استخدموا مرحاضي. والبرتقال المشويّ هذا، كيف هو طعمه؟

– جرّب، وستعرف.

لم تكن غاضبة. ربّما مستاءة قليلاً، وغالباً سيزول استياؤها بمرور الوقت. أنا الذي من المفترض أن أكون شديد الاستياء، لكنّ ذلك لم يحدث. كانت فرصة جيّدة لأحشر مديري إسماعيل خاتم الـذي بلا شك طال انتظاره، ونسيت موضوعه بسبب ما استجدّ من تطوّرات:

– عـنـدي مـديـر مـصـاب بالعين فـي نـشـاط حـسّـاس ويحتاج إلى مشورتك.

– مستر إسماعيل، ههههه، لقد وصل ونقوم باللازم.

ضحكت. لسانها أحمر، فيه كدمات صغيرة عند الأطراف، كأنّه اشتبك بلسان آخر أشدّ غطرسة، وأصيب. أنفها شارك في الضحك، لا أعرف كيف، لكنّي رأيته يضحك بكلّ ما للضحك من معنى. خصلة من شعرها الأسود الداكن استقرّت في زاوية مدروسة من الوجه، وأثارت

لغطاً داخل حواسّي، جزء من الحواسّ اشتهى، وجزء لم يحرّك ساكناً. تصميمها ككلّ في تلك اللحظة، من رأسها حتى صندلها الزيتي، المضافة إلى هيكله ورود دخيلة، كان تصميم حلوى غريبة الأطوار.

متى وصل إسماعيل عندها؟ ومن الذي أخبره عنها؟ وأين يلتقيها؟ لأنّه لم يكن أبداً من مستخدمي مرحاضي في الأيّام الثمانية الماضية أسوة بزبائن آخرين. مؤكّد تعرّف إليها بطريقة أو بأخرى، و يتلقّى الآن العلاج في مكان آخر، لعلّه بيت استأجره خصّيصاً لذلك، أو ربّما بيته وبعلم زوجته التي لم أرها أبداً ولا أعرف إن كانت حقيقة أم وهماً. أردت أن أسأل كلّ تلك الأسئلة، لكنّها أسكتتني بوضع إصبعها الأوسط من يدها اليمنى على شفتيّ بمجرّد أن انفرجتا لتمرّرا الكلام. إصبعها فيه رائحة دم، وطعم شحم نيء. ذهبت إلى بيتها، تاركة ذلك الفراغ الذي ينبت عادة في الألحفة، حين تكتشف فجأة أن لا أحد سيتغطّى بها مرّة أخرى.

في وقت آخر من ذلك اليوم، وبعد أن اشتريت برتقالتين كبيرتين وضعتهما على النار وشويتهما وأكلتهما بكثير من المتعة غير المتعارف عليها في نظام تذوّقي، طلبت من التائه، وكان ما يزال يسعل، لكن بتوتّر أقلّ، ويستخدم بخّاخاً أزرق يوسّع شعب الهواء اشتريته له، أن يذهب إلى إدارة البلدية، ويأتي بعامل لإصلاح مرحاض أولئك الناس، والأفضل أن يكون سميناً وأشيب.

التائه سألني:

– لماذا أشيب وسمين؟

– لا أدري، أوصاف خطرت لي فقط.

وضع النقود في جيبه وسألني:

– هل من الممكن أن يذهب معي عبد العال؟ منذ فترة لا يعمل، سأروّج له وسط موظفي البلدية، ربّما يكون بينهم عريس يبحث عن مطرب.

– وأنت من يروّج لك؟

– عبد العال طبعاً.

هذه المرّة لم يضحك. وكنت أتوقع أن تنفلت منه تلك الضحكات القذرة التي تهلك قواه، وتوشك أن تسحقه. كان الآن أنحف من أيّ يوم آخر، لدرجة خفت أن لا يستطيع تحمّل مشاعره.

كانت مفاجأة حقيقية لي أنّ التائه وعبد العال عادا بعقدين لإحياء حفل ساهر في استاد نادي الهلال الرياضي، ليس كمطربين بارزين ولا حتى مغمورين، ولكن كعضوين في جوقة المطرب الرئيسي الذي سيحيي الحفل، يساندانه بالتصفيق المنغّم، وترديد مقاطع الأغنية. إنّها مهمّة جسيمة بحسب عبد العال، ومهمّة غاية في التفاهة والسطحية بحسب الناس جميعهم. حتى الأجر لم يكن يتعدّى سبعة جنيهات حزينة في أفضل الأحوال. كان يصحبهما رجل سمين وأشيب، ومحترم جدّاً، أقسم أنّه لم يخرج في تظاهرة تأييد الرئيس القائد التي تلت إطاحة خصومه الانقلابيين من الماركسيين وعودته إلى الحكم مرّة أخرى في العام الماضي، لأنّه من مؤيّدي الرئيس، ولكن لأنّ ركبتيه كانتا تؤلمانه، ونصحه الأطبّاء المختصّون بالعظام والروماتيزم بالمشي، والصراخ، والتجمهر والتنديد، والتنكيل، وصفع من يمكن صفعه أيضاً. وقد نجح علاجه بالفعل، لدرجة أنّه الآن ينتظر أن يحدث أيّ انقلاب فاشل، يستعيد بعده الرئيس السلطة كي يخرج، ويتجمهر ويندّد، ويضرب حفنة من المتربّصين يعرفهم بالاسم. وضّح الرجل وجهة نظره في شأن مرحاض السيّدة سلوى بطرس. قال باقتضاب جملة في غاية الأهمّية:

– بئر مرحاض السيّدة سلوى تمّت صيانته منذ أسبوعين، ويعمل بكفاءة في استيعاب الفضلات، بما فيها الفضلات الناتجة عن أكل لحم ثور، أو بطّة مصابة بالسمنة، ولن يحتاج إلى صيانة أخرى في غضون عام على الأقلّ.

انحنى أمامي، شبك يديه بطريقة يابانية، ثمّ صينية، ثمّ بطريقة ثالثة لا أعرف هويّتها.

قلت وأنا أحسّ بدوار:

– أنت متأكّد؟

ردّ:

– لا داعي لأن أكرّر لك مسألة صياحي وتنديدي وتجمهري وانتظاري للانقلاب الفاشل.

– لا.. لا..

أعطيته جنيهين من ورق قديم ممزّق كانا عالقين في جيوبي منذ عام تقريباً، ينتقلان من جيب إلى جيب، ولم يقبل أيّ بائع أن يتسلّمهما. تقبّلهما بصدر رحب، أكثر من ذلك، شمّهما وقبّلهما، ولفّهما في شكل قلم حكّ به أذنه، ومشى. كنت أتابعه عند الباب، أراه يتوقف قليلاً أمام بيت يسكنه أحد القضاة، يخرج من جيبه شيئاً اتّضح أنّه فحم، يكتب على الحائط: «بالدم.. بالروح، نفديك يا قائدنا»، ويمضي في اتّجاه موقف الباصات.

9

قلت وصوتي كبير، أكبر حتى من ذلك الذي أصرخ به عادة:

– أريد تبريراً واحداً لاستغلالي يا سيّدة سلوى.

كنت أواجه سلوى في بيتها، وبالتحديد في صالتها التي أدخلها لأول مرّة، وتسمّيها الصالة العظيمة كما أخبرني التائه. وكانت واسعة، وبها عدد من المقاعد القديمة، والكنبات التي نحف إسفنجها من شدّة الاستعمال، أيضاً عدد من المساند القطنية المدلوقة على الأرض، وطاولات الخشب والرخام، وصور ومسابح، وجلود نمور وغزلان، وثعالب معلّقة على الجدران، وثلاث جرار في أحد الأركان، تحتها أوعية من البلاستيك، يقطر فيها الماء. كانت ثمّة زاوية مخصّصة لأغراض مختلفة كما يبدو، فيها مشغّل أسطوانات من ماركة مطموسة، وعدد من الأسطوانات مرصوص بعناية، ورفّ من الخشب عليه عدد من الكتب. بنظرة سطحية سريعة، طالعني عنوانٌ لكتاب اسمه «البسطاء»، لم أعرف إن كان قصّة أم تاريخاً اجتماعياً، أم سيرة ذاتية غير مهمّة لشخص غير مهمّ.

– من أجل والدتي سيّدي الكريم. كان ذلك جزءاً من علاجها.

– لم أفهم.

– إنّه مرض الأمنيات، اضطراب مزعج يصاب به البعض، وعلاجه في تحقيق الأمنية.

– لم أفهم.

– في الحقيقة، ليس كلّ من يتمنّى أمنية يعني أنّه مصاب بالمرض، فقط قليلون.

– لم أفهم.

– أمّي قد تدخل في غيبوبة إن لم أحقق لها أمنيتها، وكانت استعمال مرحاض بيتك لفترة من الزمن. تلك أمنيتها التي ألحّت عليها، وقاتلت من أجلها. أمنية سهلة التحقيق، والآن هي بخير، مع احتمال أن تعاودها نوبة المرض مرّة أخرى.

حككت رأسي مرّات، غيّرت وقفتي في الصالة، من النظر تجاه المرأة اتّجهت إلى النظر باتّجاه غرفة مغلقة ينبع منها شخير منتظم، شخير نائم في عمر متقدّم من النوم. لم أسمع بمرض الأمنيات هذا قطّ، ولا أظنّني كنت سأسمع به لولا وجودي الآن في بيت هذه المعالجة الروحية، التي لن أفهم أبداً كيف تدير شؤون حياتها، ولصالح أيّ طقس من الطقوس تتهذّب أحياناً، بينما تبدو بلا أخلاق في أحيان أخرى. سأحاول تصديقها، سأصدّقها، لا خيار آخر، لكنْ هناك نقاط بحاجة إلى توضيح:

– وهؤلاء الضيوف الكثيرون الذين انتهكوا بيتي في الأيام الماضية، ما علاقتهم بمرض الوالدة؟

– هؤلاء من زبائني الروحيين، وقد طالبت هي بإشراكهم في تحقيق الأمنية. جزء من أعراض المرض.

– سؤال إضافي: هل كانت هذه أول أعراض خطيرة للمرض؟ أعني أمنية مرحاضي؟

– لا، تمنّت من قبل أشياء كثيرة، من بينها أن يقبّلها ببَغاء عاشق، واضطررت لأن أستعير واحداً، علّمته بعض حيل العشق وجلبته لها. أيضاً عضوية الاتّحاد الاشتراكي، ورئاسة لجنة مقاومة أعداء الحكومة، من الأمنيات التي حققتها لها بأن جعلتهم يسجّلونها في قوائمهم ليوم واحد ثمّ يلغونها.

– سؤال أخير: ماذا لو تمنّت هذه العجوز أمنية غير قابلة للتحقيق، كالزواج برائد الفضاء يوري جاجارين مثلاً، أو تعيينها ضابط مرور؟

ابتسمَت. أعترف، ابتسامتها فيها عزّ ومجد وافتخار بالأسنان، وأشياء كثيرة طيّبة، لا أحد يلومني إن ارتعشت شفتي السفلى قليلاً، أو فكّرت أسناني في تحطيم أسنانها:

– لا تخف، ليست مثقّفة ولا طموحة لهذا الحدّ.

خرجت من عندها منزعجاً إلى أقصى حدّ، لدرجة فكّرت أن أغيّر بيتي، ولو اضطررت للسكن بعيداً في الحيّ الذي بلا اسم، حيث يسكن صديقي سعد نزوة. هذه البنت خطيرة، والأمّ أيضاً خطيرة، وعليّ مراجعة بيتي مجدّداً، ربّما اختفى شيء أملكه، أو أضيف شيء لا أحبّ امتلاكه كالمخدّرات مثلاً، أو الصور العارية. توجّست. توجّست جدّاً. وفي طريقي إلى حيّ المستشفى لتفقّد نميري، كنت أحسّ بغباء وفتور في العلاقة بين نظراتي والطرق التي تنغرس بها، فيما سائق الحافلة يصرخ: «حي المستشفى». صرخ مرّات عدّة قبل أن يتجدّد نشاط ذهني. كان الراكب الجالس في المقعد المجاور لي قد نزل كما يبدو تاركاً صحيفته التي كان يقرأها. ألقيت عليها نظرة، فطالعني وجه أحسست أنّني أعرفه. كان وجه رجل عجوز مستفزّاً، برغم عدم وضوح الصورة. لم أقرأ ما كتب ونزلت، مؤكّد أنّه أحد السياسيين الذين يملأون الإعلام صخباً.

10

كان ميدان حيّ المستشفى مزدحماً هذه المرّة أيضاً بالرغم من أنّ الصباح ما يزال في أوله، والمستشفى الذي يطلّ على الميدان من إحدى الزوايا لم يفتح أبوابه بعد للزيارة، ومثل البقعة التي كانت تؤوي الرضيع نميري بين يدي المرأة الخمسينية، قبل أيّام، كانت ثمّة بقعة أخرى بدت أشدّ كثافة، وكأنّ سكّان الحيّ كلّه تجمّعوا فيها، وشاركتهم أنفاسٌ من أحياء أخرى مجاورة. كنت أستطيع أن أرى بعض الثوابت التي أعرفها، مثل الحجارة البيضاء الضخمة التي وُضعت هناك منذ سنوات بعيدة بلا غرض معروف وأصبحت مقاعد للمتسكّعين، والنافورة المقامة منذ عهد الاستعمار، جافّة، وسطحية، ولم يرها أحد كنافورة منذ زمن بعيد، وعمود الكهرباء الأسمنتي الذي سقط عام 1959 وظلّ راقداً في المكان كلّ تلك السنوات من دون أن يوقظه أحد. وسّعت خطواتي كثيراً، واحتككت بشابّين يشبهان القسّيس وأبراموشا، لكن لم يكونا هما. كانت موضة جيل الرفض تلك قد قرّبت الخطايا والآثام، وساوت بين أولاد البيوت وأولاد الشوارع بصورة لم تحدث من قبل قطّ.

قلت:

– صباح الخير.

وكانت مقدّمة للاستفادة منهما في إشباع الفضول.

ردّ أحد الشابّين بصوت بدا لي حزيناً أو مجروحاً، كان أشبه بأصوات العشّاق الذين انهزموا في لحظة ما، ولم يستطيعوا تجاوزها:

– نعم.

– ماذا يحدث هناك؟

قلت وأشرت إلى مكان الكثافة السكّانية.

ردّ الشاب، وأرى نظراته عندي، وقد اهتمّت بخاتم فضّي متوسّط الحجم كنت قد اشتريته من سوق أمدرمان وأضعه على أحد أصابع يدي التي أشرت بها:

– عثروا على حدقة العين ملقاة في الزبالة قرب المستشفى.

– من حدقة العين؟

بدت لي الجملة غريبة، أن يعثر أحدهم على عين في الزبالة.

– رضيعة عثروا عليها قبل قليل.

وسّعت الخطى أكثر، كان خبراً مقرفاً فعلاً، أن يُعثر على نميري قبل أيّام قليلة، والآن فتاة، ماذا حدث لحيّ المستشفى؟ الحيّ الذي وُلدت فيه، وكوّنت ذكريات بعضها مهمّ وبعضها بلا أهمّية، لكن تكاد جميعها تكون خالية من الآثام الكبيرة، مثل وجود طفل ملقى في الزبالة.

كانت المرّة الأولى التي أسمع فيها باسم حدقة العين، تلك العبارة التي غالباً ما نقرأها في خطابات العشّاق، ونسمعها في حوارات المجاملة بين أشخاص يعشقون الكلام المستهلك، يتغنّون به في أيّ وقت. لديّ قريبٌ مثلاً كان يشهق انبهاراً كلما جلس في حفل، وسمع مقدّمه يصرخ بين كلّ فقرة وأخرى: «ما زال الليل طفلاً

يحبو». بالرغم من أنّ جملة طفولة الليل وحبوه تلك كانت أكثر الجمل إيغالاً في التاريخ القريب والبعيد لتقديم الحفلات الغنائية، وحفلات الأعراس أيضاً. سأندهش حقاً لو اكتشفت أنّ المرأة الخمسينية التي كانت تحمل نميري هي من تحمل حدقة العين أيضاً، وأنّها من سمّاها بهذا الاسم الغريب. لكنّي وصلت، وشاهدتها بالفعل في موقف عرض الفتاة للجمهور، ولم أندهش. كان منظراً عادياً، وأقرب إلى المناظر الموجودة في كلّ مكان، مثل منظر كنبة في صالة بيتك، أو ملاءة قديمة على سريرك، أو أسلاك كهرباء ممزّقة في الشوارع يتطاير منها الموت، أو على أقلّ تقدير، منظر أولئك المشرّدين الذين تجدهم في الطرق يؤدّون مشاهد تمثيلية من الفيلم الهندي: «سبنا وكابور».

كان الشرطي البدين الذي يمسح عرقه بالمنديل المطرّز موجوداً، والرجل الجافّ، صاحب مشية وزير المالية السابق، الذي أساء إليّ في المرّة السابقة، يتحرّك مبتعداً. اقتربت، تحسّست رأس الرضيعة، وكان فيها فراغ صغير رخو، تحسّست يديها وكان فيهما بثور حمراء، نظرت إلى عينيها وفمها الذي يتذوّق الحليب من الزجاجة المتّسخة، وقلت في نفسي: «يا للأسى». التفتّ إلى المرأة:

– من سمّاها حدقة العين؟

لم تردّ، انشغلت بالعراك لحظة مع ذبابة متهيّجة تئزّ بلا توقف بالقرب من عينيها.

– أين نميري؟

ردّت ولسانها يغبّر الكلام:

– انتفى.

– انتفى إلى أين؟

ردّ أحد الراقفين قريباً من المنظر، ولد في حوالي الخامسة عشرة، حليق الشعر، وحافٍ، وعلى أصابع قدميه زوائد ونتوءات كثيرة، خمّنت أنّها إصابات متكرّرة ناتجة من لعب كرة القدم بلا حذاء:

– تقول اختفى.

أضافت المرأة:

– تمته أسوة.

أسرع الولد:

– تقول تبنّته أسرة.

– من هذه الأسرة؟

ردّت المرأة:

– لا أزرف.

أسرع الولد:

– لا تعرف.

اكتفيت من ذلك الحوار المزعج، وسعدت فعلاً أنّ نميري عثر على من يهتمّ به. ربّما هي خطوة للمستقبل، فهو قطعاً كان سيموت أو سيكبر مشرّداً وتافهاً، إن لم يعثر عليه أحد. وقطعاً ستعثر حدقة العين أيضاً على من يهتمّ بأمرها.

– يا أخ.

كان الشرطي البدين قد تنفّض عن صمته أخيراً. أشار إليّ أن أبتعد، وأرى لسانه يتحرّق شوقاً للنطق بسؤال، وكنت أعرف ذلك السؤال، وهو عن سبب وجودي في الحيّ في وقت حدوث الفضائح، واقترابي منها لهذه الدرجة. كان هو والمرأة الخمسينية قد أسهما بجرّي إلى تحقيق الشاويش الشطة في المرّة الماضية، وقد يجرّانني هذه المرّة أيضاً. لكنّ الشطة لن يستدعيني، كما عرفت منه. قلت أجيب عن السؤال الذي لم يسأله الشرطي:

– أنا من سكّان الحيّ القدامى، وأزوره باستمرار للتأكّد من شيئين: أولاً وجود الظلال تحت الأشجار، وثانياً وجود الأشجار فوق الظلال. هذا كلّ ما في الأمر.

أظنّه أيقن أنّه سيبتسم، لكنّه قاوم بشدّة، وابتلع ابتسامته. قلت محاولاً أن أمنحه هواءً لا يملكه، ولا صلاحية له ليتنفّس به:

– سمعت أنّكم أمسكتم بطرف خيط في قضيّة نميري.

– لو كان هناك خيط أو حبل، فهو عند الشاويش كمال الدين.

ردّ بجلافة، وقد ابتلّ منديله بكثافة ولم يعد صالحاً لملاحقة عرقه الغزير. لن أحدّثه عن ضرورة ستر الفتاة بعيداً عن التجمهر، أظنّه ضدّ تلك الفكرة، وصافرته التي تتدلّى على صدره تبدو مستعدة لمساندته. بالتأكيد لا يعرف أنّ الشاويش كمال الدين ليس لديه أيّ شيء، وأثق تماماً بأنّه لن يعثر على شيء. تلك القضايا تولد في العادة مرعبة، وتنتهي حطام قضايا.

التفتّ إلى الولد الذي كان يترجم كلام المرأة الخمسينية، وكان نسخة صغيرة منها:

– هل هذه أمّك؟

– نعم أمّي، وأمّ عشرة غيري.

– هل تحبّ كرة القدم؟

– جدّاً.. أعشقها.

كلمة أعشقها ليست متداولة في هذا العمر، لكنّ الولد يبدو مدرّباً على تخطّي المعضلات التي تحفّ بالعائلات الفقيرة. لم تكن هذه الأسرة من سكّان حيّ المستشفى القديم بلا شك، ربّما سكنوا حديثاً، أو ربّما يسكنون في حيّ مجاور، والأمّ تأتي لتسقّط المآسي قرب المستشفى، وتلك هواية معروفة عند النساء في عمرها، يبحثن

عن أيّ جديد صاخب لتغيير تفاهة الحياة، حتى لو كان ذلك الجديد أكثر تفاهة من التفاهة اليومية.

– هل تحبّ أن تلعبها بحذاء رياضي من ماركة جيّدة؟

– طبعاً.. طبعاً.. حذاء بيليه، أحبّ حذاء بيليه.

لم أكن أظنّه سمع ببيليه البرازيلي، وتأكّد لي الآن أنّه مدرّب على تخطّي الصعاب، وانتهاز الفرص، وفرض الرأي الفقير بكلّ عفوية.

– سأجلب لك الحذاء. ما قياس رجلك؟

– 43.

قالها من دون هلع أو ذهول أو ارتباك، كأنّه يقدّم سيرة مهنية لأرباب عمل لن يجدوا أفضل منها، لكن رغم ذلك أحسست أنّها صيغة من صيغ عدم الثقة بالآخر، والاستخفاف بالطرح الآخر، كأنّه واثق تماماً بأنّني لن أجلب له الحذاء، وأنّه مجرّد تضييع للوقت في الثرثرة أمام مأساة لتفادي التفكير في عمقها. كان ذهني يتفلسف، وقطعاً ذهن الولد مشغول بالأمنيات وتكديسها، لعلّ وعسى.

– ما اسمك؟

أجاب بعد تردّد:

– نجم الدين.

انتهى الحوار بيني وبين ولد المرأة الخمسينية، وقرّرت فجأة أن أتوقف عن الحنوّ على الأطفال الضائعين. نميري ذهب، وحدقة العين ستذهب أيضاً، وسيأتي ضائعون آخرون من أحزان أخرى، ولن يتوقف الشجن أبداً.

كنت أتفقّد الجمع الملتمّ بكلّ هيجانه لا يزال، لم أكن أبحث عن سميّة رمضان، بالرغم من أنّني كنت أبحث عنها. كانت ثمّة نساء يتحدّثن بغموض، وغالباً يسردن سير عائلاتهنّ النظيفة من السفلة والسافلات، فجأة شاهدت الخالة، أو العمّة، تلك التي شاهدتها

بصحبة سميّة رمضان في أحد الأيّام حين زرت الحيّ، وزارتا معاً بيتاً كان فيه نواح كثير. كان ذلك قبل أكثر من عامين، لكنّ صورة المرأة ظلّت موجودة في ذهني، خاصّة أنّها حجبت نظراتي ونظرات من كنت أنظر إليها. بحثت عن نجم الدين، وعثرت عليه، كان قد ابتعد عن أمّه، وانشغل بمعاكسة صبيّة في مثل عمره تقريباً، تبدو جديدة على المعاكسات، لأنّ أنفاسها كانت معكّرة، وفي عينيها نظرة فزع.

ناديته:

– نجم الدين، تعال.

جاء يمشي ببطء، وعيناه باتّجاه الخلف، حيث سيترك صبيّة تحتاج إلى تدريب في الغزل كما يبدو.

أشرت إلى المرأة:

– تعرف هذه؟

– نعم... ابنة أخيها هي التي تبنّت نميري، الآن فقط عرفت.

– أمّك لم تكن تعرف فعلاً؟

– لا.. لم تكن تعرف.

أسئلة كثيرة ترد في هذا المحور، من ضمنها كيف تمّت صفقة التبنّي إن كانت المرأة التي حملت الطفل، وأرضعته الحليب، وعرضت مأساته للناس، لا تعرف، لكنّي لن أسأل أيّ شيء.

– ما اسم ابنة أخيها؟

– سميّة.

ارتبكت، ويحق لي أن أرتبك، والمرأة التي أحبّها بصمت، وقرّرت التنحّي عن ذلك الصمت أخيراً، وتركها لحياتها، تتبنّى ولداً ضائعاً. ما أجمل ذلك، إنّه الضوء الذي من المفترض أن يشعّ عند الناس كلّهم. أنا لست مثالياً أبداً، لكن تأتي لحظات أنتشي فيها بإشراق الآخرين. نميري سيكون في أيدٍ أمينة بكلّ تأكيد. صفّقت

لسمية صفقة حارّة، فظنّ ولد الخمسينية أنّي أسخر منه، أو أعتدي على كيانه، وظنّ العسكري البدين أنّني أستخفّ بالشرطة، وظنّ الموجودون أنّني أستصغر المأساة، ظنّوها حالة نشوة مبالغاً في اقترافها، فلا أحد يصفّق بهذه الحماسة في وجود مأساة، هكذا هي الأمور. تداركت كلّ تلك الثغرات في لحظة، وانسللت مبتعداً، وأنا أسمع صافرة الشرطي البدين، لا أدري إن كانت تتعقبني أم أطلقت في شأن آخر.

11

كنت أنظر إلى الشابّين بإتقان، محاولاً العثور على علامات، ولو طفيفة، تميّز أحدهما عن الآخر: كلاهما طويل ونحيل، ومبتذل في الشعر واللحية والملابس المتغضّنة البشعة لجيل الرفض، وكلاهما مرتبك، كأنّما الارتباك لباس لا بدّ من ارتدائه من أجل فرض الشخصية.

القسّيس وأبراموشا، هذه هي المرّة الثانية التي أراهما فيها، وأعرف أنّهما أنقذا قدم نزوة حين سقط في حفرة وانكسرت، وأنّهما يتاجران في الممنوع، وربّما اقتربا من نزوة أكثر منّي بحكم صلة الجوار، وصلة الأخطاء أيضاً. كانا يقفان ببابي، يحاولان الابتسام ولا يقدران عليه، شيء في تكوين الوجهين جعلهما مجرّد وجهين بلا إضافات أو صلات وثيقة بالشعور.

– مَن القسّيس ومن أبراموشا؟

قال الذي خلته أبراموشا:

– أنا القسّيس وهو أبراموشا.

أبقيت صورته في ذهني، محاولاً أن أتذكّره في أيّ وقت أحتاج لتذكّره فيه، بحثت مرّة أخرى في وجهه ووجه صاحبه، ولم يكن ثمّة جديد أتمسّك به. التفتّ إلى الناحية اليمنى من الشارع، تابعت

فتاتين صغيرتين تتعاركان بالأيدي وتشدّ كلّ منهما شعر الأخرى، غالباً من أجل قطعة حلوى، أو زجاجة مشروب غازي، أو حجر أملس مقتلع من بلاط ما كانتا تلعبان به الحجلة.

عدت إلى الشابّين. قلت للذي خلته القسّيس:

– لماذا يسمّونك القسيس، هل أنت منضبط، وطيّب، وصاحب حكمة ما؟

أشار لزميله:

– اسأله هو، أنا أبراموشا.

سمعت رجلاً يصيح، التفتّ، وكان رجل مسنّ بملابس شعبية قديمة، يطارد الفتاتين بصوته، فتكفّان عن العراك وتفرّان من أمامه. التفتّ، سألت القسّيس السؤال الذي لم يجبه أبراموشا، فردّ:

– هذا هو القسّيس، أنا أبراموشا.

عاودت الكرّ والفرّ اللساني، ولم أستطع أن أفرّق بينهما، كأنّهما يرتديان عطباً غير قابل للإصلاح، كأنّهما محصّنان ضدّ فضّ الاشتباك في وجهيهما.

قلت:

– اذهبا، لست بحاجة إلى مجرمين أمام بابي.

قال الذي خلته القسّيس، وغالباً هو أبراموشا:

– لم نأتِ لنسرق حصّالة نقودك، أصلاً كم قرشاً داخلها؟ قال وهو يضحك، متّكئاً على كتف الذي خلته أبراموشا، وغالباً هو القسّيس. ضحك الآخر أيضاً، وصادف أنّ مجموعة من الأشخاص كانوا يمرّون أمام بيتي في تلك اللحظة، ضحكوا جميعاً بعنف، لا أدري إن كان تجاوباً مع القسيس وأبراموشا، أم لأسباب أخرى، تزامن حدوثها مع ضحكة الشابّين.

أحسست باحتقان في الحلق، وبحاجة ماسّة لأن أتهوّر، لكنّ تهوّري، إن حدث، لن يكون نـدّاً لتهوّر هذين الولدين القويّين إن تهوّرا أيضاً. آثرت أن لا أغتاظ، وسألت نفسي: صحيح، لماذا هما أمام بيتي؟ لماذا قطعا كلّ تلك المسافة من الحيّ الذي بلا إسم ليطرقا بابي؟ أكيد أنّ شيئاً ما حدث في بيت سعد نزوة وجاءا ليبلغاني. اعتذرت بسرعة، محاولاً ترتيب كلمات تمنح الاعتذار جدوى، مثل أهلاً، مرحباً، شرّفتما، طاب يومكما...

قال الذي خلته القسّيس:

– نحن رسولان من الأستاذ سعد.

– ماذا حدث له؟

قال الذي خلته أبراموشا:

– هو يدعوك لحضور عقد قرانه وزفافه على إحـدى حسان الخرطوم، في بيته الكائن خلف عربة الفيلد مارشال إسحق، في الحيّ الذي بلا اسم، وذلك في الساعة السابعة مساء يوم الجمعة القادم.

– عقد قرانه؟ معقول؟

لم أفاجأ، لكنّني ادّعيت أنّني فوجئت. وواحد مثل سعد نزوة يملك مقدرة على أن يجعل المفاجآت بلا مفاجآت. لم تكن ثمّة امرأة في حياته بحسب علمي، وحتى أيّام قليلة، حين زرتـه وقدمه في الجبس، لم يذكر أيّ شيء عن علاقة حبّ، أو فكرة زواج. كانت عنده امرأة متقدّمة العمر من نساء الجوار تساعد عجزه، وتصلح له أدوات الحياة المعطوبة، ولو كان ثمّة خطيبة أو حبيبة، لاختلف الوضع. ربّما القسّيس وأبراموشا يعرفان أكثر عن الموضوع. لكنّ مثل هذين اللذين تربّيا في الشارع، وتذوّقا طعم الريح والبرد والتوافه لن يدليا بأيّ شيء. سأجرّب:

– مَن سعيدة الحظّ هذه؟ سعد لم يخبرني حين زرته قبل فترة قصيرة والتقيت بكما هناك.

– ولا نحن نعرف شيئاً، هو لم يخبرنا أيضاً. قال الذي خلته أبراموشا، مستخدماً صوتاً في غاية النضج، صوت واحد نضج الآن فوراً أمام بيتي.

– النساء في كلّ مكان، وما أسهل العثور عليهنّ. أضاف الذي خلته القسّيس، والذي لم ينضج صوته بعد. كان صوت مراهق لعين، تقدّم خطوة منّي، خبط على كتفي بعنف متعمّد، ثمّ أمسك بيد صاحبه وابتعدا. تابعتهما ببصري، ورأيتهما يتوقفان عند بيت القاضي، حيث خطّ العامل السمين الأشيب بالفحم هتافه المحترم. التصقا بالحائط وتبوّلا، وكنت أستطيع أن أرى خيطين غليظين من ماء أصفر ينبعان منهما، وظلّا هكذا لزمن أحسست به أطول كثيراً من زمن إفراغ مثانة عادية.

كان المساء في أوله حين تذكّرت أنّني لم أرَ أيّاً من سكّان الشارع منذ قرابة يومين، وفي العادة لا بدّ من أن أرى التائه يترنّح في المسافة بين أول الشارع وآخره، وقد يتوقف عند بابي قليلاً ليحيّيني إن كنت موجوداً، أو يحيّي الباب الحديدي، ودائماً ربع سيجارة مشوّه بين شفتيه، وربّما أرى عبد العال كذلك، وأرى سلوى تفتح باب بيتها إمّا لدخول هوس ما، أو خروج هوس آخر، أو لمجرّد فتح الباب فقط بلا سبب. الشارع في استراحة، هكذا صنّفت الهدوء، ولا بدّ سيعود إلى ضجيجه.

جلست على دكّة صغيرة من الأسمنت، كنت قد بنيتها قبل سنوات، واتّخذتها متّكأً للخروج من العزلة، إن اشتقت للخروج، كانت ملاصقة للباب، ويمكن الجلوس عليها بارتياح، والنوم أيضاً إن أردت. ولا بدّ أنّني غفوت على الدكّة، لأنّ أشياء كثيرة مرّت في ذهني، وعادة

لا تمرّ وأنا مستيقظ، أو شبه مستيقظ، مثل تلك القطّة السوداء التي لحست قدمي قليلاً، مثل هياكل بشرية تجرّ ثقلاً بالأرض، ثمّ ترفعه، وتدخل به بيتي، وتلك الرائحة التي كأنّها رائحة مقبرة في أوج نشاطها، مثل عراك قد يكون نشب بين صفيحة زبالة وجردل بلاستيكي فيه ماء، مثل امرأة شبه عارية تسأل رجلاً شبه عارٍ عن الوقت. حين استيقظت، كان أول ما فعلته أن محوت معطيات الغفوة عن ذهني، وتطلّعت إلى ساعتي، كانت حوالي العاشرة، واستغربت فعلاً، لم تكن غفوة إذن، لقد رقدت رقاداً كاملاً في الشارع، ولم يحدث لي ذلك من قبل قطّ.

12

عرس سعد نزوة كان مفاجأة لي وللتائه وعبد العال اللذين صحبتهما معي بكامل سخافتهما الغنائية، وعدم مقدرتهما على استخدام قدرات الحنجرة بإخلاص، وذلك لمحاولة الغناء هناك، بغضّ النظر إن كانا سينجحان أم لا. كان عبد العال يرتدي الزيّ الشعبي، ثوبٌ أبيض من قماش لا بأس به، وعمامة تبدو متآكلة الحافات لكنّها متماسكة، وحذاء من جلد الماعز أعتقد أنّه هديّة من معجب، أو ربّما انتُزع بلا إهداء من واحد غير معجب، بينما اشتريت للتائه سروالاً من القطيفة السوداء، وقميصاً أبيض، وحذاءً رخيصاً من تلك التي تُفصّل محلّياً، ونظّارة سوداء من ماركة بيرسول مستعملة لمدّة ست سنوات، أصرّ على أن يشتريها، بالرغم من أنّ المناسبة ليلية. كانا يصارعان الغناء داخل عربة الأجرة التي أقلّتنا إلى حيّ بلا اسم، يجرّبان أغنيات التراث والأغنيات الحديثة والهابطة وأغنيات البنات. وقد حاول التائه أن يتطفّل على أناشيد رياض الأطفال، ونجح إلى حدّ ما في ترديد نشيد «روضتي.. روضتي»، من دون أخطاء تُذكر. عبد العال أيضاً تطفّل بشكل مسعور على أغنية من أغنيات الحماسة الرائجة في هذه الفترة، وأوقعها على الأرض بجدارة. فكّرت أنّني أصحب كارثتين، وفكّرت

أيضاً أنّ أذواق الناس تختلف، وربّما يكون جمهور حيّ بلا اسم، غير متفقّه في الغناء، وفيه سكارى ومنتشون قد تعجبهم إساءات التائه وعبد العال.

المفاجأة كانت في نواحٍ عديدة:

• سعد نزوة يتحرّك في بدلة سوداء قديمة، لكن أجيدَ تنظيفها بلا شكّ. لم تكن قدمه في الجبس، ولا يعرج أو يتّكئ على عصا، كما هو متوقّع لمصاب في سنّه، رغم أنّه لم يكمل شهراً في الإصابة. كان يبتسم أيضاً، وأحياناً يضحك، أو يغنّي بخفوت ويده ممتدّة لمصافحة الضيوف الذين قدموا للمشاركة في حفل الزفاف.

• العروس في الخامسة والستين، إنّها الحاجّة التي كانت موجودة في بيته في اليوم الذي زرته فيه، والتي قدّمت له الحساء الساخن ولي ذلك المشروب الذي بلا هويّة وخفت من تذوّقه. امرأة مسنّة فعلاً، قد تحتاج إلى قوانين جديدة في فنّ الاشتهاء والحميمية لإدراجها عروساً في ليلة الدخلة. كانت في ثوب بسيط وردي اللون غير مطرّز بالدانتيلا، وطرحة بنفسجية من قماش سميك، كأنّها بتلك التناقضات تمعن في إبعاد الأذهان عن فحوى العرس التقليدي المعروف.

• شاهدا العرس: القسّيس وأبراموشا، بالهيئة الضبابية نفسها، وأن لا أحد منهما يشبه الآخر، والآخر لا يشبهه. كانا بالمظهر نفسه الخاصّ بجيل الرفض، ملابس ممزّقة بائسة، ووسخ متقن جدّاً.

• منسّق الحفل: واحدة من فتيات عشوائية اسمها خضرة، تبدو حبشية، وتدّعي أنّ جذور عائلتها من لشبونة في البرتغال. للمصادفة، كانت هي الفتاة التي جلست معها ساعات في المرّة الوحيدة التي زرت فيها البيت، وخرجت بلا إثم كبير. كانت موزّعة بين الحضور،

تحاول أن تكمل نقصاً هنا ونقصاً هناك، وفي الحقيقة كانت تنقص حتى من المُكتمل في ذلك العرس الشيطاني.

• الحارس، الذي يسمح بدخول الخيمة الكبيرة التي نُصبت في الميدان الضحل بعد أن رُدمت أجزاء منه، كان الفيلد مارشال الألماني: إسحق، وهذا كان اختياراً حزيناً فعلاً، لأن لا أحد مُنع من الدخول، بناءً على تصنيف الفيلد بأنّ سكّان حيّ بلا اسم كلهم جنوده، وأنّه مسؤول عن رعايتهم وإطعامهم والترفيه عنهم.

• الضيوف الذين حضروا بدعوة مؤكّدة من العريس كانوا حوالي خمسين أو ستين، من بينهم مبروك، لاعب الكرة القديم الذي كان يستحضر أمجاده ويسبّ الحكومات وغيرها من معوّقات التنمية البشرية في بيتي ذلك الصباح وكاد يبكي انبهاراً حين قلت له: «يوم لك ويوم عليك»، والرقيب حمّاد، رجل الأمن المميّز بحسب تعبير مستر إسماعيل، والسجّان المسنّ الوعر، بحسب شعور الغيظ الذي أملكه تجاهه، والصحفي البوهيمي برباط عنق أخضر مختلف قليلاً عن ذلك الذي كان يرتديه في بيتي، وبسروال أبيض أيضاً، علقت به بقعة دهن عريضة لم ينتبه إليها لأن لا أحد نبّهه، والشاعر المخضرم صاحب قصيدة بلقيسي التي ألقاها هنا أيضاً من دون أيّ وازع من ضمير. إذن سعد يعرف كلّ هؤلاء الذين أنكر أمامي معرفته بهم، وهو من أدخلهم بيتي، وإلّا، فكيف أتوا إلى عرسه؟ لا أعرف... ربّما يكون صادقاً، ويكونون مجرّد متطفّلين على العرس، خاصّة أنّ المارشال كان مهتمّاً بالشأن العسكري في السلوك البشري أكثر من اهتمامه بحراسة خيمة عرس.

• التائه وعبد العال لم يغنّيا، أو لم يحاولا أن يغنّيا، وكانا محترمين وعميقين، حين قالا لمنسّقة الحفل خضرة، وهما أبعد ما

يكون عن النظر إلى صدرها الـوردي، وجسدها المضغوط ببشاعة داخل قميصها الأخضر:

– لن نغنّي في وجود أهل الحلّ والربط أبداً.

سألتهما:

– مَن أهل الحلّ والربط؟ لا يوجد أهل حلّ وربط هنا.

– بلى، يوجد، هذا الرجل الكبير مثلاً. قالا وهما يشيران معاً إلى رجل معمّم في السبعين أو الثمانين، كان يجلس على أحد المقاعد الأمامية، وقد اهتمّ بشكل ملحوظ بلا شيء تقريباً.

في النهاية لا تعليق. لا بخصوص العروس، ولا من شاركوا وغنّوا ورقصوا وانتشَوا، ولا بحيّ بلا اسم كلّه، وبسعد الذي كان في أسمى نزواته على الإطلاق.

لن نذهب إلى خور عاج معاً. لن نذهب إلى أيّ مكان معاً، وغداً أرى مستر إسماعيل وأخبره بقراري.

13

«هل عاد مرض الأمنيات إلى أمّك مرّة أخرى؟».

كنت أسألها وهي واقفة ببابي. وسلوى بطرس لا تبدو غير مهتمّة بسؤالي، على العكس كانت مهتمّة جدّاً، كما بدا لي في تركيزها الشديد على لساني وهو يترنّح بالسؤال.

كانت ترتدي ثياباً من الساتان الأحمر، ذلك النوع من الثياب الذي يجعل المرأة طويلة ورشيقة وناعمة العينين، حتى لو لم تكن كذلك.

سميّة، حبيبة النظرات القديمة، كانت ترتدي الساتان، وتزهو به، وكم من مرّة شاهدت نظرات عنيفة مزعجة تتراكض أمامها وخلفها وقريباً منها.

لم أرد أن أخصّ الصدر المهيمن على مشهد الجارة بنظرة أكبر من المعتاد، لكنّ النظرة الكبيرة، للأسف، خصّته.

تلك الظهيرة كنت قد ذهبت إلى إدارتي. أردت أن أرى إسماعيل خاتم كي أخبره في عبارات قليلة مقتضبة أنّ سعد حسّان المعروف بنزوة تزوّج حديثاً، وأنّه لن يكون بمقدوره السفر إلى خور

عاج أو غيرها في أيّ وقت، كما كان واضحاً من تمسّكه بالرشاقة والسعادة المطلقة، ومن تمايله بخيلاء في خيمة العرس، وكأنّه يُزفّ إلى ملكة، وكي أخبره باقتضابٍ أكثر أنّني أيضاً غير راضٍ عن نقلي، وأحسّ بالتعب من مجرّد التفكير في أنّ ثمّة صحراء ستُقطع، واحتمال توهان، وعطش، وقرىً جافّة، وربّما شيوخاً حذرين، وأطفالاً بلا مقوّمات يبكون بلا دموع.

لقد كنت في الحقيقة أعتمد على سعد وعلى رفقته في غربة الجفاف، لكن بعد أن حضرت ليلة عرسه، أيقنت أنّ لا شيء سيعود كما كان مرّة أخرى، وأنّ كثيراً من الذكريات الطيّبة والضالّة للشخوص يمكن أن تنحني هكذا، ببساطة، لتعبر عليها بدايات ذكريات جديدة تتكوّن رفقة حيوات أخرى.

كان أكثر ما باغتني فيه تلك الليلة سرعته في اتّخاذ القرارات، مثل أن يجعل جنرالاً سرابياً مجنوناً حارساً غير ملحوظ بالرغم من اكتمال زيّه، وواحدة سيّئة السمعة مثل خضرة فتاة طيّبة وخدومة، جديرة بالاستقبال والوداع، وتصدير الجمال إلى الآخرين، من دون أن يكون ثمّة جمال. كان يمشي بقدم مكسورة من دون عرج أو رغبة في الجلوس قليلاً لتخفيف ألمٍ قد يكون مدوّياً، فالدويّ مسيطَر عليه، حتى إنّه تزوّج بالحاجّة بالرغم من انحسار مقوّمات الزوجة في تفاصيلها الكثيرة التي بدت لي تفاصيل ضياع أكثر منها تفاصيل وجود فعلي. لكنّ أقسى ما فعله هو أنّه لم يدعني أعود إلى بيتي باستيائي المتوسّط القيمة الذي انفعلت به في خيمته، بل أراد لي استياءً مدهشاً لا يمكن التغاضي عنه بأيّ صيغة من الصيغ.

ونحن عند باب الخيمة، ونستعدّ لتجاوز الفيلد مارشال، ناداني، وطلب منّي أن لا أسأله أيّ أسئلة، حتى لو كان ما سيقوله حشرَ أنفٍ وغداً في شؤون جدّتي المتوفّاة منذ أربعين عاماً. كانت

ملامحه شبه جادّة، وشبه ساخرة أيضاً، وقد حشا فمه بشيء من حلويات العرس. أضاف:

– سمعت أنّك كنت تبحث عن الرضيع نميري قبل أيّام في حيّ المستشفى.

– نعم.

– وعرفت أنّ حبيبتك تبنّته، وأنّك صفّقت لها أمام الناس.

لا أعرف من أين يأتي بتلك المفردات الموغلة في الخصوصية، ومن يصوّر له بألفاظ منمّقة تلك الأحداث التي لا يكون طرفاً فيها أو قريباً منها ساعة حدوثها، والتي يحكي عنها من دون أن يهتزّ شاربه أو يمتدّ إصبعه ليحكّ أنفه. لعلّه من مخبري الأجهزة الأمنية، ومسلّط على صداقتنا، يكتب تقارير وافية عنها. لكن لمَ عساه يفعل ذلك؟ فهو يعرف تماماً أنّني لست مسيّساً، ولن أكون يوماً كذلك. نعم، عرفتُ أنّ المرأة التي كنت أحبّها بصمت وتركتها بعد ذلك هي من تبنّت الطفل، وصفّقت لها بمودّة وانتشاء.

– نعم.

– ليكن في علمك، سميّة تبنّت ولدها، نميري هو ولدها الذي ألقته في الشارع، بمعرفة أهلها كلهم، وعادت لتستردّه أمام الناس، بوصفه طفلاً ضائعاً، لا تسألني عن والد الطفل لأنّني لا أعرفه حقيقة، وإن عرفته في أيّ يوم فلن أخبرك.

خبط على كتفي خبطات خفيفة متلاحقة، هي قطعاً خبطات المواساة، أو التضامن مع الضحيّة حين تحدث كارثة ما، ولا أعرف إن كنت أحتاج إليها في تلك اللحظة أم لا. لن أقول إنّني لم أندهش، ولم أتعذّب ولم أقلّب أنفاس الجمر في رئتيّ لدقائق قبل أن ينطفئ جزء من النار، ويظلّ آخر متّقداً. كنت قد قرصت التائه في خدّه النحيل، والتقطت حجراً من الأرض القاحلة ألقيته بعيداً تجاه ما خلته خروفاً أو

كلباً واتّضح أنّه ظلٌّ هازئ من ظلال الليل. كان سعد قد عاد إلى داخل الخيمة حين مشيت متعثّراً، محاولاً أن أطمئن النار داخلي، قائلاً لنفسي إنّ الأمر لا يستحق، وهو فعلاً لا يستحق، فلم أكن حبيباً رسمياً لتلك الفتاة في يومٍ ما، وحتى ذلك البصيص من الحبّ تركته وتفرّغت لسخافات الشارع حيث أقطن. لماذا أنا منهزم إذن؟ ربّما لإحساسي بأنّني صفّقت لقصّة كانت تستحقّ البكاء عليها، لا أقلّ ولا أكثر.

حين وصلت إلى غرفتي، كان قد بقي حوالي أربع ساعات على شروق الشمس، قسّمتها في ذهني، قلت ساعة للنسيان وساعة للنسيان أيضاً، وساعة للنسيان ثالثاً، والساعة الأخيرة للنوم، حتى لو لم يأت فعلاً.

وفي ساعات النسيان أعدت سؤال نفسي مراراً:

– هل أنا متضرّر من شيء؟

وأجبتني:

– لا بكلّ تأكيد.

– هل يوجد جرح عميق أو سطحي في قلبي أو شعوري؟

– لا.

– هل كنت حبيباً خيالياً لامرأة خيالية، تزوّجت بشرطي وأنا موجود، وعادي، ولم تنتفض شرارة في دمي؟

– نعم حدث.

– إذن هنيئاً لنميري بأمّه.

نمت حتى قرابة الظهر، ونهضت نشيطاً وجيّد المزاج. استحممت بماء بارد، أزلت لحيتي، وتحدّثت إلى صورة كبيرة للإيطالية جينا لولو بريجيدا كنت أعلّقها في غرفتي، ليس بدافع نزوات المراهقة، وعاداتها السرّية، ولكن لمنح الإحساس بأنّني قريب من الجمال الاستفزازي ذلك، وأستطيع مغازلته. انطلقت إلى إدارة

الحكومات المحلية، راكباً حافلة صغيرة متّجهة إلى وسط المدينة عثرت عليها مصادفة. كنت ما أزال في إجازة، لكن لا بدّ من حسم مسألة خور عاج.

الساعي الذي يحرس باب غرفة المدير ويعتبر نفسه المدير في كثير من الأحيان لم يكن عند الباب، واستغربت من أنّه ليس في مكانه. فتحت الباب وفوجئت بأنّه جالس على مكتب المدير، وفي فمه سيجار ضخم من الخشب. كان منظره مضحكاً، وجديراً بإدراجه ضمن قائمة ساخرة في صحيفة واسعة الانتشار، لكنّني لم أضحك، هي شبه ضحكة فقط وقفت متصلّبة على حلقي:

– عبد الغفّار.

أبعد سيجار الخشب عن فمه:

– مستر إسماعيل في إجازة، وأنا أحرس مكتبه كما ترى، إن كان لديك شيء اذهب إلى نائبه.

– منذ متى هو في إجازة؟

– منذ عشرة أيّام.

مؤكّد أنّه صادق، لأنّ إسماعيل ظهر في جدول أعمال سلوى بطرس منذ حوالي عشرة أيام، أي تاريخ بدء إجازته. لا شيء أفعله في الإدارة إذن، وسأعود حين تنتهي إجازتي، أو إجازته، لا فرق.

– متى سيعود إلى العمل؟

– لا أعرف، ربّما غداً أو بعد غد..

غادرت وثمّة أسىً كبير يتملّكني، أسىً تجاه الساعي الذي لن يصبح مديراً أبداً، فقد أرهقني منظر السيجار الخشبي، والرجل المنتشي بحلمٍ لن يتحقق في يوم من الأيّام.

كان الوقت ما يزال مبكراً حين خرجت من مبنى الإدارة، وقد نسيت صورة عبد الغفّار وآماله المحطّمة. سرت قليلاً في الشارع

المزدحم بالناس والسيّارات، والوفرة والعدم، والقبح والجمال. كان مبنى الاتّحاد الاشتراكي، الحزب الذي يبطش بالبلاد وأهلها، والمقام على أرض واسعة، كئيباً بالرغم من لمعان حوائطه، وانبعاث الأناشيد الممجّدة للثورة من داخله. عبرت بجانب خيمة كبيرة كُتب عليها: «الرياضة المستعملة»، بدت لي الكلمة غريبة لكنّي فلسفتها في ذهني، واعتبرت أنّ المعنى واضح لكن صياغته لم تكن منضبطة، لا بدّ أنّ المقصود «أدوات الرياضة المستعملة». في تلك اللحظة تذكّرت نجم الدين، ولد المرأة الخمسينية، مرضعة نميري وحدقة العين، الذي يحتاج إلى حذاء رياضي قياس 43، وسخرَ من إمكانية حصوله عليه. عدت إلى الوراء ودخلت الخيمة. كانت سوقاً غريبة بالفعل لم أكن أتوقع وجودها أبداً. سوقٌ تبعث على الأسى بشكل جادّ. فقد جلس فيها مجموعة من الرياضيين القدامى الذين انتهت صلاحية أجسادهم في الفعل الرياضي، متراصّين على الأرض في بروش قديمة من السعف، وجوههم ميتة تماماً، وأمام كلّ منهم حذاء أو حذاءان من تلك التي رقّصت الجماهير ذات يوم على أنغام الكرة العظيمة. كانت ثمّة شرّابات طويلة سميكة، وأثقال متنوّعة من الحديد، وطاولات خشبية قديمة لا بدّ مورست عليها كرة الطاولة. كانوا فقراء بكلّ تأكيد ويسعون إلى كسب حرّ، وآلمني بشدّة أنّ واحداً شبيهاً بالكابتن مبروك، وفي عمره تقريباً، بدا الأكثر حزناً وانطواءً بينهم، قد كتب على ورقة ألصقها بحذائه البالي من ماركة أديداس: «قياس 43، الحذاء الذي يفهم الكرة أكثر من لاعبي الكرة، للجادّين فقط».

جلست على ركبتيّ أمامه. أمسكت الحذاء، قلّبته، رفعته وخفضته، فبدا لي جيّداً جدّاً ويصلح لنجم الدين. سألت عن سعره فأجابني الكابتن بلسان كسير: «سبعة جنيهات يا صاحب السعادة». أخرجت من جيبي عشرة جنيهات جديدة ووضعتها في يده، لففت

الحذاء في ورقة من أوراق الجرائد قدّمها لي، حملته وذهبت بينما ظلّ ينادي عليّ ليمنحني باقي نقودي، لكنّي لم أكن أريدها.

– هل عاد مرض الأمنيات إلى أمّك في شأن مرحاضي مرّة أخرى؟

– لا.. أردت دعوتك إلى قهوة في بيتي. لا ترفض أرجوك.

الساتان الأحمر يقبض على جسدها، وجسدها يوسوس في عينيّ. لا أدري لم ابتهجت فجأة ونسيت نسيان أمس كله، ذلك النسيان الذي خرجت منه بلا ضغينة ولا أيّ احتمالات لجرح.

لن أرفض دعوتها، وكنت قد دخلت بيتها مرّة واحدة، أيّام غزوة المرحاض، تشنّجت فيها وصرخت، وعاتبتها بشدة.. لا مانع من دخول البيت مرّة أخرى، لكن سأفكّر في مسألة القهوة لاحقاً. لن أدّعي أنّني لست خائفاً، ولا أعرف بالضبط ماذا في القهوة أو غيرها من محاليل الضيافة عند امرأة تتكشّف أسرارها أمامي باستمرار من دون أن أفهم أيّ سرّ هو الأفضل، والأجدر بمعرفته: سرّ جسدها؟ سرّ مشاعرها؟ سرّ حياتها كلّها؟ لن أتعرّف إليها جيّداً كما يبدو لي، لن ألمّ بأيّ واحدة من تلك الخفايا المكشوفة، كلّها مستترة عند حدود فهمي، حتى مسألة إسماعيل الواضحة جدّاً، كشفتها من دون أن تكشفها هي. قالت اسأله، ولا أعرف إن كنت سأستطيع سؤاله حين ألتقيه أم لا. نظرت إليها لآخر مرّة، محاولاً أن أعثر على الجوع المناسب في رغبتي التي سأدخل بها بيتها، وكان ثمّة جوع في كياني كله، لكنّه ضئيل.

قلت:

– سأحضر في المساء.

– وهو كذلك.

لمّت جسدها المضغوط بالأحمر، وانزاحت إلى بيتها. كانت ثقيلة في المشي، بالرغم من رشاقتها، وأظنّ أنّ الأمر مرتبط بالأنوثة الحقيقية أو المفتعلة، حيث لا بدّ من تقييد المشي، وتنغيمه قبل وضع الخطوات في الطريق. كان صندلها من ماركة دكتور شول، حذاءً طبّياً، لن تجده في العادة عند امرأة تسكن في حيّ متوسّط القيمة، لكنّه عندها.

14

كنت في حيّ المستشفى، أحمل حذاء الأديـداس القديم، الذي اشتريته من الرياضي المتهالك الشبيه بالكابتن مبروك، وأردت إهداءه إلى نجم الدين، وواثق تمام الوثوق بأنّه لا يتوقعه، ولا ينتظره، وأنّه قد يكون نسي تماماً أنّني وعدته بحذاء رياضي، بمجرّد أن تسرّبت مبتعداً في ذلك اليوم الذي عثروا فيه على الطفلة حدقة العين.

تُرى من هي أمّ حدقة العين؟

مَن المرأة التي ستتبنّاها أو قد تبنّتها بالفعل؟

لن أسأل مَن أبوها لأنّ الآباء في كلّ الأحوال لا يُعثر عليهم، وحتى لو عُثرَ عليهم فلن يثبت أحد أبوّتهم لطفل. كانوا يردّدون في المختبرات: فصائل الدم تُثبت، ثمّ اتّضح أنّ فصائل الدم قد تنفي الأبوّة تماماً عن أحد، لكنّها لا تثبتها. إذن ما زال السرّ سرّاً كما هو، حتى ينقشع صمت الضحايا من النساء اللاتي يكنّ غالباً عاشقات، يستخدمن قلوبهنّ فقط في الاحتكاك بالرجال، لكن قد يتطوّر ذلك الاحتكاك إلى نزف.

كان النهار قد انتصف تقريباً، لم يكن ثمّة حرّ ولا برد، فقط رعشات دافئة من شهر ديسمبر، أكثر الشهور طيبة وتفهّماً للمزاج

في رأيي، بالرغم من أنّني لم أستطع أن أحدّد حتى الآن في أيّ شيء تكمن طيبته وتفهّمه للمزاج؟

لم أكن أتوقع وجود أحد في الميدان في تلك الساعة، ولا أعرف كيف سألتقي ولد الخمسينية، ولا أعرف بيته وهل هو من سكّان الحيّ أم لا. كلّ ما أستطيع أن أفعله هو القيام بجولة مستكشفة في الحيّ أشمّ فيها كلّ زاوية ومربّع، وربّما أسأل عن الولد، إن صادف وعثرت على شخص أستطيع أن أسأله من دون حرج. لم يكن السؤال هيّناً، ولا كان ليمرّ بحياد، خاصّة أنّني أكبر من الولد بضعفَي عمره، وهناك أفكار غير حميدة ترد إلى أذهان الناس في مثل هذه الأمور.

هبطت من الشاحنة التي لم أجد غيرها في الموقف، وكانت خشنة وسيّئة، ورجّتنا في حفر وأخاديد، وخيران يطفح منها القرف، إضافة إلى ما كان يبثّه الراديو الموصول بالمايكروفون المعلّق في السقف من دراما إذاعية سيّئة الإعداد عن عنترة بن شدّاد العبسي. كان الممثّل الذي يقوم بدور عنترة يصرخ: «ويح بني عبس من دوني يا قوم»، ويردّد آخرون: «ويحهم يا ابن الكرام»، وتصيح امرأة: «أيَّ كرامٍ تعنون؟»، ويعود الممثّل عنترة، بعد صوت مخيف أظنّ يُقصد به صليل سيف، أو قعقعة رمح، لكن لم يكن متقناً، إلى الصياح: «ويحك يا امرأة، ويح أهلك كلّهم»، فتردّد المرأة: «ويح عبلة يا جحش عبلة»، إلى أن تصل الشاحنة إلى حيّ المستشفى وتتوقف، ليتوقف معها نواح الدراما. وكان قد سألني رجل يجلس بجانبي، وفي يده سوط من سياط جلد البقر يهزّه بين حين وآخر، عن معنى «ويح»، فأجبته: «ويل»، سأل عن معنى «ويل»، فقلت: «ستندم يا»، فسأل عن معنى «ستندم يا»، فقلت بعد تفكير قليل، وبعد أن امتلأت بهيئته: «المطر». عند ذلك ابتسم، وشكرني بأن أمسك بيدي اليمنى

وضغط عليها، فأحسست بها تتوجّع. كان مزارعاً بلا شكّ، ومؤكّد من الذين يمارسون الزراعة المطرية.

في البعد، كان الميدان يبدو مختنقاً بالناس هذه المرّة أيضاً، وخفت جدّاً أن تكون أصبحت عادة أن يختنق الميدان باستمرار، بسبب العثور على طفل في المزبلة. لا يمكن منطقياً أن يحدث ذلك، وإن حدث لا يمكن أن يكون مصادفة، وإن كان مصادفة، فلن يكون حضوري مقبولاً. في المرّة الماضية، قلت للشرطي: «أتأكّد من وجود الظلال تحت الأشجار والأشجار فوق الظلال»، لن يكون حديثي مقبولاً إن تحدّثت في أيّ شيء هذه المرّة، خاصّة إن اقتربت من الطفل، ولمست رأسه ويديه أو قرصته في خدّه بحنوّ، إنّهم يرفضون الحنوّ رفضاً قاطعاً.

وقفت في بداية الميدان، قرب محطّة الباصات، متحيّراً وواجماً أفكّر في أشياء كثيرة متشابكة ما عدا ذكرى سميّة، أمّ نميري، التي كانت أول ما يحتلّ أفكاري في الماضي حين آتي إلى هنا. كان ثمّة أشخاص يعبرون من أمامي، ذاهبون إلى الميدان، وآخرون عائدون منه، وشاهدت الفتاة اليافعة التي كان يغازلها نجم الدين وتبدو مرتعبة من غزله، تركض بقربي مبتعدة عن بؤرة التكاتف، كان وجهها أزرق وفي عينيها رائحة خوف أو حزن لم أستطع أن أفرّق، ناديتها: «أنتِ، لو سمحت»، لكنّها لم تلتفت، عبرت الشارع واندسّت وسط البيوت في الحيّ المجاور. مرّ رجل كان في ما مضى مدرّساً للغة العربية في مدرستنا الابتدائية وتقاعد منذ ثلاثين عاماً، لكنّه ما يزال يمشي بمهارة، ويذهب إلى النيل كما سمعت، يجذّف في المراكب، ويحمل رحلات طلّابية إلى الجزر القريبة ويعود. لم يكن يعرفني وحتى لو كان يعرفني قطعاً لن يتذكّر. صحت: «أستاذ حـ...» ولم

أكمل، خفت أن لا يكون اسمه كما أتصوّر، وعلى كلّ حال لم يلتفت، ومضى بخطواته الجيّدة مبتعداً.

الذي حدث أنّ سيّارة لاندروفر مكشوفة، من سيّارات الشرطة، مكتوباً على هيكلها «نجدة»، عبرت مسرعة، شقّت الميدان باتّجاه التجمّع، وكان على ظهرها ثلاثة جنود يحملون البنادق. توتّرت جدّاً، هذه ليست مسألة عثور على رضيع ملقىً في الأوساخ، يمكن أن يسيطر عليها شرطي بدين تاركاً الناس لفضولهم، المسألة أكبر من هذا بلا شك.. لكن ماذا يحدث؟ هل هي تظاهرة ضدّ السلطة؟ هل يحاول البعض أن يتملّص من قبضة الديكتاتورية؟ تلفتّ ملتاعاً مخافة أن يكون هناك من قرأ أفكاري.

في اللحظة التالية تلاشت مخاوفي كلّها، وركضت ناحية بؤرة الكثافة، كان حذاء نجم الدين يهتزّ في يدي، فمن الممكن جدّاً أن أعثر عليه هناك وأسلّمه الحذاء.

حين وصلت، كان جنود الشرطة الذين قدموا باللاندروفر قد استولوا على المكان. فرّقوا الناس وأحدثوا ثغرة في الغموض بحيث انكشف الحدث. كان هناك جسد لشابّ كما يبدو، مغطّى بأوراق الجرائد، وقد برزت قدماه الحافيتان من تحت الغطاء. كانت الأصابع موسومة بنتوءات وكدمات، غالباً من جرّاء لعبه كرة القدم حافياً.

– من هو؟

الناس يسألون وأنا لا أسأل.

– ولد من سكّان الحيّ اسمه نجم الدين.

– ماذا حدث؟

الناس يسألون وأنا لا أسأل.

– دهسه سائق متهوّر وفرّ.

– لماذا لم يُحمل إلى المستشفى وهو على بعد خطوات؟

الناس يسألون، وأنا واجم أسمع نصف الكلام، ويضيع منّي نصفه.

– لأنّه مات من فوره، انظر ها هو مخّه يملأ الشارع.

أحدهم يجيب ويشير غالباً إلى بقع صفراء في المكان لم أرها، لم أرد أن أراها. جرجرت نفسي مبتعداً. كنت أودّ أن أبكي، أقسم أنّني وددت لو بكيت لكنّي لم أبك منذ زمن طويل، عادة البكاء عندي سخيفة، لا تؤازرني حين أحتاج إليها أبداً. كان الحذاء داخل كيس البلاستيك في يدي يهتزّ، وفكّرت بجدّية أن أعود إلى جثمان الولد، ألبسه الحذاء، وأذهب، لكن لا أحد سيستوعب نقطة كهذه، حتى الميت نفسه لن يستوعبها، إن حدث واستيقظ فجأة، ووجد قدميه داخل حذاء. حذاء بيليه، يا إلهي! كيف هو حذاء بيليه؟ أكيد من أديداس أيضاً، وربّما يكون قياس 43. كنت أبتعد وأنا أرى نساءً كثيرات يبكين بصمت، وأخريات بينهنّ أمّه يتمرّغن في الوحل. لم يعد الخروج من الميدان أمراً سهلاً. كان المشي فيه كأنّك تطأ الدموع، وتسمعها تولول من أثر ثقلك عليها.

جلست على حجر ناتئ قرب محطّة الباصات، أخرجت الحذاء من كيسه، وسألته بصدق: «هل كنت تعرف أنّ نجم الدين لن يلبسك؟».

وصوت الحذاء يردّد: «أعرف. أعرف. أعرف».

وجدتني أردّد: «أعرف. أعرف. أعرف». ولم يكن أحد في المكان لحسن حظي.

فجأة مرّ ولد في حوالي السادسة عشرة، يقود درّاجة قديمة بلا رفارف وبإطارات مستهلكة. كان يرتدي سروالاً أزرق وقميصاً بنفسجياً مفتوح الأزرار، وكان حافي القدمين. ناديته:

– اسمع.

توقف، والنظرة التي في عينيه نظرة فضول أكثر منها نظرة خوف.

– نعم عمّي.

قال بعد أن رمى الدرّاجة على الأرض ووقف أمامي:

– كم قياس قدمك؟

– 43.

ردّ بعفوية شديدة.

– جرّب هذا. إنّه من ماركة أديداس.

أمسك الولد بالحذاء، وقد لمعت في فمه ابتسامة، أدخل قدميه فيه ومشى به مسافة قليلة، ركض به عدّة أمتار وعاد، كانت ابتسامته الآن أكثر من لامعة، ربّما كانت ضحكة، لكنّي لم أسمعها.

– هل يناسبك؟

– جدّاً جدّاً عمّي. كم سعره؟

– ليس للبيع.

قلت، وقفزت إلى الحافلة التي توقّفت أمامنا في تلك اللحظة بينما رفع الولد درّاجته وعيناه على الحافلة. كانت يده تشير بودّ، وخُيّل إليّ أنّه يصفّر بلحن طفولي جذّاب.

15

كانت زيارة غريبة، تلك التي قام بها نزوة وعروسه لبيتي في منتصف شهر عسلهما، ولا أدري ما الدافع لها أصلاً والذي بيني وبين سعد قد انهدّ تماماً في اللحظة التي أخبرني فيها بخطيئة حبيبتي. صحيح أنّها لم تكن حبيبة أجدت في حبّها أو أجادت في حبّي، ولم تكن امرأة مستقبلي، لأنّي لم أنوِ الارتباط بها بصورة جادّة أبداً، وتركتها لشرطي تزوّجها ومات، وأيضاً لمن عبث بها، وأنجبت، وتخلّصت من الطفل، وأعادته بتلك الحيلة الذكيّة، لكن بالرغم من ذلك لم أحبّ تلك المعلومة، كرهتها جدّاً، وتمنّيت لو لم أسمعها، عندها كان تصفيقي لسميّة سيظلّ تصفيق مشجّع قويّ، وربّما أعيده مرّات كلّما صادفتها.

أيضاً زواجه بامرأة مسنّة، ومصاحبته لصبيّين مجرمين، وسكناه في حيّ لم يُسمَّ بعد ولا أظنّه سيُسمّى في يوم من الأيّام، خفض كثيراً من شعبية تاريخه معي. كان نزوة في الماضي مقبولاً في كلّ حالاته، والآن لم يعد كذلك.

بالطبع لم أصارحه بكلّ ذلك الشعور المضني الذي يكبر في نفسي، ولم أبيّن تعسّفاً مقصوداً أو غير مقصود تجاه زواجه أو حياته الخاصّة عموماً. كلّ ما نويت أن أفعله هو أن لا أظهر مجدّداً

في حياته. لكنّه هو مَن ظهر اليوم، وفي وقت كنت فيه ممدّداً على كنبتي في الصالة، أستمع من الراديو الفيليبس العتيق إلى أخبار عن تحطّم طائرة ميج 16 عسكرية في ناحية من الصحراء، ومعلومات عن أنّها الطائرة رقم خمسة التي تتحطّم هكذا ويموت قائدها فوراً. ذكرت الأخبار اسم الطيّار رضوان، وكان اسماً مألوفاً لا أذكر أين سمعت به، لعلّه أحد زملاء الدراسة القدامى.

كان سعد حليق الرأس، يرتدي ملابس جيّدة، وينساب منه عطر نسائي مؤكّد التصق به من التصاقه بالعروس في شهر العسل. كان يمشي بلا عرج، وكأنّ قدمه شُفيت من التطوّر الذي طرأ على حياته، أو ربّما لم تكن مكسورة أصلاً وادّعى أنّها مكسورة حتى يفرّ من رحلة خور عاج. فأنا، عموماً، أصدّقه حيناً وأكذّبه حيناً آخر، وبين الحين والحين الآخر تتأرجح دائماً بؤر من التردّد.

كانت العروس التي لم أعرف اسمها بعد معدّلة لتكون عروساً، لكنّ سنّ الستين وما فوق متهوّر، لا يترك الجمال، حتى إن وجد، مبهراً لأحد. يبدو أنّ ثمّة أيادي ماهرة عملت على الوجه، لكنّها عجزت عن ترميمه جيّداً. أيضاً انتبهت إلى النظرة الشكّاءة لنساء العمر المتقدّم جدّاً، والجسد الذي لا يبدو صحيحاً وملتزماً بالقواعد المطلوبة لشهر العسل، فقد كان ثمّة تعثّر في المشية، وخلط بين عدّة جمل وصفية مهمّة في الكلام العادي، مثل تشبيه صالتي التي نجلس فيها بالمكنسة الطويلة التي تأتي من يوغندا، وتشبيه عصير التبلدي الذي قدّمته لهما بارداً وصحّياً بشراب فنيلين المضادّ للسعال، وكان دواءً شهيراً، لأنّ الكثيرين كانوا يستخدمونه بصورة جادّة، كغذاءٍ مكمّل للأطفال الرضّع، أو مخدّر متمرّس لإسكات الزوجات السيّئات الطبع. أنا ضدّ أن أنحشر في خصوصيات نزوة وضدّ أن أنظر إلى المرأة التي

اختارها نظرتي إلى أمّي أو جدّتي، لكن يستفزّني الغنج حين يخرج من فم تكسّرت أسنانه.

– ألا تنوي الزواج يا أخ علي؟

قالت العروس الحاجّة، وهي تضغط على يد عريسها بقوّة، أو بوهن، لم أستطع أن أعرف..

– ليس في الوقت الحالي.

أجبت بتهذيب.

– متى إذن؟

– حين أعثر على فتاة أحلامي مثلما عثر صديقي سعد.

أظنّها بوغتت لا بعبارة فتاة أحلامي، بل بكلمة فتاة وحدها التي أظنّها لم تسمعها منذ نصف قرن. بدت مسحورة وشديدة القرب من الفتيات اللطيفات حين نهضت فجأة، عقدت ثوبها الطويل في منتصف ساقيها، وانغمست في نشاط هستيري، نظّمت فيه المطبخ، والصالة والغرفتين، وكادت تنزاح إلى الحوش الخلفي الذي لم أره منذ أكثر من خمس سنوات ولا أعرف ما استجدّ فيه من وسخ، لولا أنّ سعد أوقفها. كان سعيداً بما أنجزت وفي الوقت نفسه لم يرد لإشراقة العروس التي يراها فيها أن تنطفئ في نشاط غير ضروري.

كان أهمّ ما حدث في تلك الزيارة، وبعد أن شربنا قهوة بيتية من صنع العروس، أنّ سعد باغتني:

– سأقدّم استقالتي من الحكومات المحلّية.

تصنّعت أنّني بوغتّ رغم أنّه معه لا توجد مباغتات.

– وماذا ستفعل؟ على الأقلّ عندك هناك وظيفة وراتب.

– وهل تسمّي هذا راتباً؟ أنت تعرف وضعي وأنّني أسكن في مكان غير مؤهّل ليسكنه أحد.

– أنت اخترته.

– وضعي الاقتصادي هو الذي اختاره، لكنّي لست نادماً، هناك عثرت على نصفي حتى آخر العمر.

قال واحتضن المرأة التي لا أدري هل هي قصيرة بالفعل أم أنّ الاحتضان صغّرها بوصات عدّة. كانت سعيدة ومتوهّجة.

أضاف بعد لحظات:

– سنعمل أنا وسعادة في التجارة.

إذن اسمها سعادة، ومؤكّد أنّها كانت تشبه اسمها جدّاً في تلك اللحظة بالذات، وربّما ستظلّ تشبهه في ما بقي لها من عمر. لكن فيمَ سيتاجران وهو لا يملك رأس مال يبدأ به، ولا تبدو العروس ثريّة؟

– فيمَ ستتاجران؟

– الخشب.

قال نزوة وأخرج من جيبه علبة سجائر من ماركة برنجي الشعبية. كانت السيجارة التي أخرجها من العلبة نحيفة وخانقة حين أشعلها.

– عند سعادة رأس مال صغير سأضمّه إلى ما عندي ونتاجر في الأخشاب، إنّه مشروع حيوي، ما رأيك؟

– على بركة الله، ما دام الأمر مربحاً.

قلت ولم أودّ أن أقول أكثر.

بغتةً أحسست بالخجل. كان انتقادي لعمر العروس وهيئتها معيباً، حتى لو لم أبح به لأحد. والمرأة تعجب صاحبي جدّاً، وواضح أنّها تسعده. من المفترض أن أكفّ عن الحنق، وأن ألتفت إلى مشاكلي الخاصّة، وأسعى لوضع حدّ لما يفعله الشارع فيّ: التائه، عبد العال، سلوى بطرس.. يا إلهي، هذه المرأة بالذات تبدو معضلة بحجم الأرض.

فجأة قال سعد:

– متى ذهبت إلى الإدارة آخر مرّة؟

– قبل أيّام، كنت أريد أن ألغي مهمّة خور عاج نهائياً، وعلمت أنّ المدير في إجازة.

– كان في إجازة لكنّه لم يعد للعمل.

– معقول؟

– ولم يعد إلى بيته منذ أسبوع أو أكثر.

– ماذا حدث له؟

– لا أحد يدري أين ذهب. سمعت أنّهم عثروا على سيّارته البيتلز عند محطّة السكة الحديد، كأنّه تركها هناك وسافر إلى مدينة ما في الأقاليم.

– ممكن.

قلت بتردّد، وفي ذهني رجلٌ يعتقد أنّه مسحور في العلاقة الجنسية ويسعى إلى حلّ، أوصله سعيه إلى سلوى بطرس كما ادّعت بنفسها، بالرغم من أنّني لم أره قطّ يتحاوم في شارعي، أو ينضمّ لعشّاق ذلك البيت. لكن ربّما يستأجر مكاناً خاصّاً للنزوات التي يظنّها علاجاً روحياً لمرضه. لا أحد يدري. وسلوى، حين سألتها عنه وإن كان شُفي، قالت: «اسأله بنفسك»، ولم تتسنّ لي فرصة سؤاله.

بالطبع إسماعيل ليس أبي ولا أخي الأصغر كي أقلق كلّ هذا القلق، لم يكن وجوده يسعدني ولا غيابه سيؤدّي إلى نقصان راتبي أو درجتي الوظيفية التي أنا فيها، لكن مجرّد اختفاء شخص تعرفه من دون أن يترك أثراً سيزعجك بلا شك.

– هل هو متزوّج؟

كانت المرّة الأولى التي أحاول فيها معرفة حالته الاجتماعية.

– كان.

ردّ سعد ويده تمتدّ إلى يد عروسه، التي نهضت وعدّلت ثيابها، ورفعت رأسها إلى أعلى، تماماً مثلما تفعل الملكات في الكتب المصوّرة، وأفلام سينما كوليزيوم.

– كان وطلّق زوجته منذ زمن طويل.

حتى إسماعيل لم يكن جادّاً. هكذا قلت في سرّي، ورجل في هذه السنّ لا بدّ لديه ذكريات عن الفحولة، يحتاج إلى امرأة عاشتها معه ليذكّرها بها. الناس حين يكبرون تتغضّن وجوههم وأجسادهم، لكنّ الذكريات تظلّ صبيّة وشجاعة، وتأتي في أيّ وقت تُستدعى فيه. كان أفضل ما فعلته أنّني لم أدلّه على سلوى، استدلّ عليها وحده أو بمساعدة آخرين، لا أعرف... كنت سأحسّ بالخوف أكثر لو فعلت، الخوف من أنّ الرجل قد يكون ارتوى من ماء آسن، أو ما يزال عطشانَ إلى الآن.

16

كانت إجازتي السنوية التي حصلت عليها عقب تأجيل السفر إلى خور عاج قد انتهت، وكان لا بدّ من أن أعود إلى إدارتي وأمارس العمل من داخل مكتبي القديم، حتى يقرّر إسماعيل ماذا سيفعل معي. هل سيتركني راكداً حيث كنت طوال تلك الأعوام، أم تنتعش فكرة خور عاج في ذهنه مرّة أخرى، أو يستبدلها بقرية أخرى تسعى لأن تكون مدينة بلا مقوّمات.

لم أكن قد زرت الإدارة منذ ذلك اليوم الذي لم أعثر فيه على المدير وأخبرني الساعي الذي كان يجلس بعظمة على مكتبه، يدخّن سيجاراً افتراضياً من الخشب، أنّه في إجازة – بعدها بأيّام زارني نزوة وأخبرني باختفائه، وبأنّهم عثروا على سيّارته البيتلز قرب محطّة السكّة الحديد، ما يؤكّد سفره إلى مدينة إقليمية لغرض لا يعرفه أحد.

كنت أعرف نزوته في شأن علاج الفحولة المنهزمة، وأنّه كان من مرضى سلوى بطرس، وذهبت إليها في بيتها. أسألها بتأنٍّ، ليس لأنّ الرجل من أحبابي، أو أنّ لديّ أيّ تفكير مناهض لممارستها الدجل المسمّى علاجاً روحياً، وإنّما لأصل إلى شيء. كان سلوكاً أشبه بالنخوة الاجتماعية كما فسّرته، وانتشيت بتفسيري.

كان بيتها صامتاً حين طرقته، وهي المرّة الثالثة التي أطرقه فيها. المرّة الأولى كانت استتباعاً لثورة غضب في شأن الاستخدام المضني لمرحاضي لدرجة الإتلاف، والثانية كانت لشرب فنجان قهوة اتّضح في ما بعد أنّه فخّ لاحتوائي بعدد من المغريات لم أتعذّب بها، ولا بدوت حريصاً عليها، يومها خرجت سريعاً قبل أن يكتمل الطرح الفاجر كله، لكنّي استطعت أن أسأل في ذلك الحين:

– هل هذا جزء من العلاج الروحي؟

– لا.. العلاج الروحي فيه موسيقى، ورقص، وأحلام يقظة إيجابية، تُحشى في الذهن، من أجل التخلّص من السلبيات.

– والتعرّي؟

– إنّه للذين أحبّهم.

وقفت في اللحظة التي انفتح فيها باب غرفة الأم. وبدت العجوز طويلة وقاتمة اللون في الضوء الشاحب، كانت ترتدي قميصاً بيتياً أبيض اللون، ولا تبدو كأنّها كانت نائمة واستيقظت. صرخت الجارة: «أمّي عودي إلى النوم، عودي أرجوكِ»، لكنّ العجوز وقفت، وظلّ طولها يزداد، حتى خلتها تعانق السقف. كان من الواضح أنّها لم تُفاجأ، أو أنّها معتادة على رؤية ما هو مخزٍ وحزين، وربّما تستمتع حتى برؤيته. وكانت المرّة الأولى التي أرى فيها جسداً منكسراً وحزيناً، فيه عشرات البقع السوداء، كأنّه خضع لمعارك بلا حصر لم ينتصر في أيّ منها. طلبت منها أن ترتدي ملابسها، وأن توفّر الحرارة المندلقة من عنفوانها المجروح لوقت لا تصحو فيه الأمّ. وكنت كاذباً، أردت أن تكون الأمّ مستيقظة في كلّ لحظة أدخل فيها هذا البيت لأيّ سبب من الأسباب.

لم تفتح سلوى الباب إلّا بعد فترة أظنّها تجاوزت تلك المعتادة لانتظار أيّ طارق لأيّ باب. كانت هادئة ورزينة. دعتني إلى الدخول

بحذر، ولم أدخل. أظنّها لا تريد تكرار تجربة هروبي، وقد تعاود الإغواء، لكن ليس الآن. قلت:

– لديّ أسئلة محدّدة أرجو أن أحصل على إجابة لها.

لم تردّ.

– متى رأيت إسماعيل خاتم آخر مرّة؟

– لا أذكر، الرجل أخبرني بعد جلسات طويلة من العلاج أنّه شُفي ويريد أن يعود إلى بيته.

– متى؟

– لا أذكر... ربّما منذ شهر أو أكثر. لمَ؟ ماذا حدث؟

– اختفى ولم يعد إلى مكتبه أو بيته، الناس يبحثون عنه، والشرطة أيضاً، من دون فائدة.

– غريبة.

قالتها وبدت مثيرة وهي تقولها، ليست إثارة جنسية، بل إثارة شعورية، ذلك النوع من الإثارة الذي ينبع من الشعور ويصبّ في الشعور، والنوع الذي أفضّله شخصياً، وأستجيب له. انتفضتُ من الداخل، ردّدت كلمتها: «غريبة»، وهي ردّدت: «غريبة فعلاً»، وحاكيتها: «فعلاً... فعلاً...». أخبرتها عن السيّارة المتروكة عند محطّة السكّة الحديد، وأيضاً لم تكن لديها فكرة. باختصار، كانت امرأة إمّا عالجت الرجل روحياً بالفعل وأطلقته لحياته، أو لم تعالجه، وجرّدته ممّا يملك، وأطلقته. بالنظر في عينيها، وتفحّص لسانها، وإثارة الشعور في صوتها، أيقنت أنّها أطلقته لحياته بغضّ النظر إن كان شُفي من التعاسة أم لا.

– طيّب... أين كان يتلقّى جلسات العلاج؟

– هنا.

أشارت إلى داخل البيت، بعد أن فتحت الباب كاملاً.

– في الصالة العظيمة التي تعرفها.

– لكنّي لم أره أبداً في الشارع. متى كان يأتي؟

– حين ينام الصخب ويستيقظ الهدوء، حين لا يوجد في الشارع حتى همس أوراق الشجر. تلك كانت شروطه. كان رجلاً نشيطاً ومتحمّساً، وأكّد لي أنّه سيسهم بالترويج لأعمالي لدى معارفه. هل ستدخل؟

– لا... في وقت آخر. أنا مشغول على إسماعيل جدّاً.

وقبل أن أغادر بابها، سألتها، ليس بدافع الفضول، أو الخوف من شيء، ولكن بلا دافع:

– لماذا لم تُصب أمّك بنوبة جديدة من نوبات مرض الأمنيات؟

– أصيبت وتتعافى، كانت أمنيتها بسيطة هذه المرّة، أن تشهد ولادة ناقة حمراء. أخذتها إلى مضارب إحدى القبائل البدوية القريبة، ولوّنوا لها ناقة كانت تلد، وانتهى الأمر.

أمٌّ غريبة فعلاً، ومرض لم أسمع به عند أحد من قبل قطّ، هكذا فكّرت وأنا أراجع في ذهني أمراضاً كثيرة أعرف أنّها تصيب النساء العجائز عادة، منها الزار الحبشي، وزار الكلاب، والخلل الذي قد يصيب المخّ، وينتج شلل الرعشة، لكنّ مرض الأمنيات هذا لا أعرفه.

– ولماذا لم تعالجيها روحيا؟ ألستِ معالجة؟

– ليس مرضاً قابلاً للعلاج الروحي.

أنت وهي بحاجة لمصحّة، هكذا صرخت داخل نفسي، ولم أجرؤ على الصراخ خارجها. في تلك اللحظة انضمّ التائه وعبد العال إلينا، خرجا من بيت عبد العال المصدّع الحوائط وجاءا. كان معهما شخص ثالث، يشبه حفّاري القبور بصورة مذهلة، عجوز ميت الوجه، ويمشي بثلاثة أنواع من الخطوات، مرّة مستقيمة، ومرّة مائلة، ومرّة

تنزاح قليلاً إلى الخلف. الرجل لم ينضمّ إلينا ومضى في اتّجاه الشارع الرئيسي، ووضّح عبد العال:

– هذا مؤلّف أغنياتنا.

أضاف وأسنانه تلوك شيئاً ما:

– هنيئاً لك بحبّ الملكة.

وضحك. الضحكة القذرة نفسها التي تتراوح دائماً بين قصيرة وقصيرة جدّاً. أحبّت سلوى وصفها بملكة كما بدا لي. رفعت رأسها بجدّية وألقت نظراتها في السراب بعيداً وكأنّها تخاطب بها رغبات هناك. بدا التائه فظّاً ومختلفاً حين نطق:

– الملكة قاتلة الرجال.

لم يضحك أو يبتسم أو يبدِ أيّ قذارة في حلقه. وكأني لمحت شعاعاً من القسوة انفلت من عينَي سلوى، كأنّي لمحت هزّة في يديها، أو انزعاجاً ما حين تحوّلت من وقفتها المتصلبة، واتّكأت على الباب شبه المفتوح.

أظنّ التائه كان يمزح. فقط سيرة الموت تصيب دائماً بالإحباط.

كانت التحرّيات التي أجريت في ذلك الحين، كما عرفت من زملاء تابعوها، بعد أن أبلغ أحد أقاربه باختفائه، قد بيّنت أنّ إسماعيل أوقف سيّارته عند محطّة السكّة الحديد، ودخل المحطّة، وكان ثمّة ثلاثة قطارات متّجهة إلى جهات مختلفة في الشرق والغرب والشمال ستتحرّك في ذلك الوقت، على الأرجح أنّه ركب أحدها. وأكّد خمسة من المتسوّلين يعملون في المحطّة بشكل خاصّ، لم يستجوبهم أحد ولا كانوا من ضمن خطّة الاستجواب بل أدلوا بأقوالهم طواعية، أنّهم تراصّوا أمام رجل بمواصفات إسماعيل، عجوز وممتلئ، ولديه اعوجاج طفيف في الأنف، وشبه غطرسة في مشيته، وسألوه صدقة لكنّه امتنع، قال: «جيبي مثقوب»، ومضى مبتعداً.

في الحقيقة، استوقفتني عبارة «جيبي مثقوب» تلك كثيراً. كانت من العبارات التي تُستخدم في حالة الإفلاس، أو انعدام المال حتى لضروريات الحياة. وواحد مثل إسماعيل لن يصل إلى تلك المرحلة بسهولة، وحتى لو كان يقترب منها، فلن يردّ بعبارة «جيبي مثقوب»، بل سيردّد ما يردّده الكلّ في حالة عدم مقدرتهم أو رغبتهم في منح الصدقات: «الله كريم». قد يكون الرجل الذي تحلّقوا حوله ليس إسماعيل خاتم، وقد يكون هو لكن بلا قرش في جيبه، وقد يكون هو وجيبه متخم لكنّ ذهنه خامل، بلا تفاعل إنساني.

أحتاج الآن إلى شيء من حنكة سعد، من حكمة الصعاليك إن صحّ الأمر، لكنّي لا أستطيع أن أذهب إليه في حيّه البعيد، خاصّة أنّه ترك الإدارة، وغالباً افتتح محلّه لتجارة الأخشاب بمشاركة زوجته الحاجّة.

التائه وعبد العال، بالرغم من أنّهما الآن من أصدقائي الودودين، وأصبحا يدخلان بيتي ويخرجان منه بعادية شديدة، وأحياناً ينامان في الصالة على أنغام موسيقى تنبعث من راديو فيليبس، إلّا أنّهما غير مجديين في معالجة الأمور الكبيرة، كلاهما ضائع ومشرّد، ويعتمد على ما أمنحه له، وما يأتيه من تلك الجنيهات الحزينة إن شارك في حفل ما.

كان التائه يضمحلّ أمامي، أراه يستجدي أنفاسه ليضحك ولا يقبل أن يذهب ليفحصه أحد. وكنت قد سألته مرّة عن علاقته بالذين تجمّعوا في بيتي في ذلك الصباح الذي رأيته فيه أول مرّة، فأجاب بأن لا علاقة أبداً، قال: «كنت قادماً لرؤية عبد العال، بعد أن تعرّفت إليه في إحدى الحفلات، ووجدت الباب شبه مفتوح، وثمّة ضجيج ورائحة دهن، فدخلت... كنت جائعاً وأحتاج إلى سيجارة...».

تُرى هل دخل الرقيب حمّاد، والصحفي البوهيمي، والشاعر الانتهازي، ولاعب الكرة، بهذه الصفة أيضاً؟

لا أعرف، صدقاً لا أعرف.

– وعبد العال؟

– هذا زميل مهنة، كلانا تافه وحقير ومتسوّل.

تلك العبارات قالها بعظمة، ولم يتسارع تنفّسه أو يتقطع عند نطقها. وأنا أؤمن كثيراً بأنّك تستطيع أن تتغطرس في ما تقتنع به، حتى لو كان سراباً. لقد تذكّرت نجم الدين، الولد المتوفّى وفي داخله أحلام بعرض الدنيا، ذاك كان متغطرساً أيضاً وهو يصف فقره.

لا أدري لماذا أردت أن أتطفّل على المكان الذي شوهد فيه إسماعيل آخر مرّة، كان تفكيراً بلا معنى، وما زلت أكرّر أنّني لست مهتمّاً، سواء عاد المدير من غيبته، أو ظلّ غائباً إلى الأبد.

كان التفكير الضحل في ظلّ هذه المعطيات البسيطة يفضي إلى أنّ امرأة إقليمية شدّته إلى إقليمها، امرأة ساحرة أو عادية، لا فرق، امرأة قد يكون يعرفها من قبل، وقد يكون عرفها حديثاً، وأكّدت له بقليل من الحيل شفاءه من الحزن.

أمّا التفكير الآخر المتعقل، فكان يفيد بخللٍ ما: كأن يكون فقد وعيه فجأة، واستيقظ بلا ذاكرة. كأن يكون مات، وذلك أمر يمكن حدوثه في تلك السنّ، وحتى في سنّ أصغر كثيراً. لكنّه لم يكن مريضاً على حدّ علمي، ولا بدا على وشك الموت. وهنا أسأل نفسي: هل يبدو على الناس أنّهم على وشك الموت أم أنّهم سيعمّرون؟ ذلك سؤال لا يمكن الإجابة عنه بدقّة، أحياناً يُخيَّل لنا أنّنا نملك إجابة، وقد نكون نملكها لكن لا نستطيع أن نؤكّد أنّنا نملكها.

أول ما لفت نظري قرب محطّة السكّة الحديد الرئيسية أنّ سيّارة المستر لم تكن موجودة، ولا بدّ سحبتها الشرطة لنبشها بتأنٍّ

بحثاً عن إجابة ربّما ترقد داخلها. عبرت إلى داخل المحطّة، أتفقّد الناس، أبحث عن ثياب رثّة، وشعر أجرب، وأحذية ممزّقة، أبحث عن متسوّل ربّما أدلى بتلك الشهادة عن الجيب المثقوب.

– أنت.. يا..

ناديت أحدهم، وكانت ملابسه قديمة، شعره منكوش جدّاً، حذاؤه جافّ، ومتّسخ، وقد علّق على كتفه اليمنى حقيبة من القماش، فيها بقع كثيرة. هذا أحد الذين أدلوا بشهادة عن الجيب المثقوب بلا شك.

– أنت شهدت في موضوع الجيب المثقوب؟

طالعني باستغراب وبدا مستعدّاً لتلقيني درساً، لا أعرف ما هو الدرس بالضبط، لكن بدا لي أنّ ثمّة درساً سأتلقّنه. في تلك اللحظة عرفته، إنّه الشاعر صاحب قصيدة بلقيسي.

قلت:

– عفواً ظننتك شخصاً آخر.

ردّ محاولاً أن يبتسم، ولم يحدث ذلك، شفتاه جافّتان للغاية، وأسنانه مقسّمة إلى هياكل صغيرة، وحزينة بفعل التبغ، وأيّ ابتسامة تغامر بالظهور هنا، ستموت حسرة أو اختناقاً:

– الكلّ يظنّونني شخصاً آخر، بالرغم من أنّني كيان مستقلّ منذ ستّين عاماً. هناك شابّان قبلك ظنّاني شخصاً آخر أيضاً وطالباني بسداد دين لهما عندي. وقبلهما ظنّتني فتاة صغيرة إحدى شخصيات مجلّة ميكي. أغرب من ذلك، عندي امرأة دائماً ما تظنّني جدّاً لأحفاد جارتها، وليس زوجها، وجدّ أحفادها. على كلٍّ أنا الشاعر زكي المحاسن، مبتكر قصيدة بلقيسي.

اسم زكي عادي وممكن طبعاً، لكنّ المحاسن هذا يلفت النظر بشدّة، لم أسمع بأب أو جدّ اسمه المحاسن من قبل قطّ. كان من

الواضح أنّه لم يتعرّف إليّ، وحقيقةً، في المرّتين اللتين شاهدته فيهما، كنّا وسط زحامٍ من الصعب التركيز على شخص فيه. الأول في بيتي، والثاني في خيمة سعد، والآن قصيدة بلقيسي التي أشاهدها واضحة تماماً في المسافة بيني وبينه.

قلت:

– أعرف بلقيسي بالطبع، إنّها ملحمة.

– بل أكثر من ملحمة. قال بفخر.

والفخر، كما قلت من قبل، لا يحتاج إلى إجادة أو مجد حقيقي، إنّه مادة شعورية يمكن تربيتها حتى في زرائب الأغنام، وعشش الدجاج، والأسطح التي يرعى فيها الذباب والبكتيريا. بلقيسي في رأيي البسيط، ليست قصيدة، وكلّ قصائده التي ردّدها في بيتي في ذلك النهار ليست قصائد، وهو ليس بشاعر. أوشكت أن أتحمّس، أن أسحب اعترافي بقصيدته وأزجره، لكن تراجعت. لست هنا كي ألغي ضياع ضائع، أو وهم موهوم، أنا أيضاً لي عيوب وتفاهات، ومرّة اقتنعت بأنّني ممثّل حقيقي، ذلك حين شاركت مع إحدى الفرق المغمورة، في تمثيلية عن الصحراء، كنت أصرخ طوال المسرحية «نظري حادّ.. نظري حادّ»، والمخرج انتبه فجأة إلى أنّني أرتدي نظّارة طبّية، فأخرجني من المسرح لتمضي المسرحية من دون دوري.

سألت محاولاً إلغاء أو اختصار تساؤلات كثيرة قد ترد إلى ذهنه، منها الاستفسار عن معنى الجيب المثقوب.

– ماذا لديك في محطّة السكّة الحديد؟

– غزال.

أجاب وعيناه الهرمتان، تجولان بحرص في المكان، وأحياناً بأكثر من الحرص لأنّهما تتوقفان طويلاً في تفاصيل بعينها، مثل

حقائب اليد النسائية، والكعوب العالية، وثياب الساتان اللمّاعة، والأماكن التي تنبع منها أصوات مدهشة أو مندهشة.

– غزال؟

– نعم، غزال نادر وملهم، واستفزازي، إنّها فتاة أعشقها من بعيد، ستسافر الآن وأنا أبحث عن قصيدة.

– كيف ذلك؟

سألت متعجّباً وأجهل تماماً أطوار الفعل القصائدي.

– نظرة إليها وهي تخطو إلى القطار ستهبني مقطعاً. نظرة أخرى وهي تتسلّق سلّم القطار ستهبني مقطعاً جديداً. نظرة أخيرة إلى وجهها خلف النافذة والقطار يتحرّك وتكتمل القصيدة. أعدك بأنّني سأسمعك إيّاها حين نلتقي مجدّداً. ما اسمك؟

– علي صلاح.

– تشرّفنا يا علي.

فجأة خطر في ذهني سؤال، ألقيته بعفوية:

– وإن لم تجلس خلف النافذة، لأيّ سبب من الأسباب، مثل عدم رغبتها أو عدم عثورها على مقعد هناك، فكيف ستختتم القصيدة؟

ابتسم. الابتسامة مطموسة تماماً، لا تستطيع بقايا الأسنان المحطّمة حملها وإظهارها للعلن. هذا الرجل بحاجة لأسنان صناعية، وأجزم بأنّه لن يعترف بذلك، وربّما يتعمّد أكل الموادّ الصلبة، متحمّلاً توابعها، من أجل أن يظلّ سرابياً منجرفاً.

– كن في مستوى الأسئلة حين تسأل شاعراً، هناك شيء اسمه الخيال، إلى اللقاء يا علي.

وانزاح من أمامي في اتّجاه أرصفة القطارات.

أشعر بغرابة شديدة في أن يقترن الشعر، حتى لو كان ركيكاً وسيّئاً، بكلّ تلك المغامرات والخسائر والحزن. نظرت إلى سميّة رمضان لسنوات وسنوات، ولم تأتني أيّ قصيدة.

مشيت في المكان. مشيت ساعة، وأنا أحمل عملات معدنية في جيبي، أتعمّد رجّها لتحدث صوتاً كلما اقترب منّي شخص رثّ. لكنّ متسوّلي الجيب المثقوب لم يكونوا موجودين، ربّما لم يكن هناك من شاهد إسماعيل أو حاول التسوّل منه، ربّما كلّ هذه ادّعاءات يخترعها الناس، وينشرونها.

وأنا عند باب المحطّة، شاهدت الرقيب حمّاد. كان شعره مصبوغاً بعناية، شاربه قصير ومرتّب، وحذاؤه بدا لي من ماركة «دياز وإخوانه» التركية التي كانت تأتي مهرّبة. كانت معه تلك الفتاة اليانعة التي شاهدتها بصحبته في مطعم أمازون قبل أشهر حين دخلته بدعوة من مديري إسماعيل، مؤكّد أنّها قريبته أو زوجته. وهؤلاء لا يقتربون إلّا من الجمال ولا يتزوّجون إلّا الجمال، ولكنّ أظفارهم حادّة في مواجهة الشرفاء. طالعت يده التي تحمل الحقيبة السوداء الصغيرة، ويده الأخرى التي تترنّح إلى جانب الفتاة، ولم تكن ثمّة أظفار. مؤكّد كنت أعني الأظفار المعنوية.

17

شخص لا أعرفه ولم ألتق به من قبل أبداً طرق بابي في ذلك الصباح البارد من شهر فبراير. كنت مسترخياً في صالتي الفقيرة، أفكّر في مواضيع مهمّة وأخرى سطحية، من بينها ما يمكن أن يكون حدث لإسماعيل في تلك الغيبة اللغز التي لم يستطع أحد أن يحدّد تضاريسها بعد. ما يمكن أن يكون حدث لأمّ نجم الدين بعد الموت الفجائي لولدها، وإن كانت ما تزال تفتّش عن الأطفال الضائعين في الشوارع وترضعهم الحليب المتّسخ في ميدان حيّ المستشفى، أم أقلعت عن ذلك الفعل. ما يمكن أن يحدث للكرة الأرضية كلّها لو تطاول عليها وباء نشط وهزّها، مثل حمّى الوادي المتصدّع، أو حمّى المستنقعات، أو الطاعون الذي ظلّ مرادفاً لحيوات البشر منذ زمن بعيد، يزعجها بين حين وآخر.

كان الرجل ممتلئاً وقصيراً، لحيته جهمة، وسرواله من قماش دمور تاريخي لم أرَ أحد يرتديه منذ سنوات. باختصار، كان رجلاً لا يشبه الوسامة، وربّما لا يشبه شبه الوسامة حتى. قال من دون أن أحيّيه:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أضاف:

– نحن من جمعية «عاشروهنّ بمعروف» الخيرية، لدينا مشروع زواج خيري للعزّاب والعازبات، سنتحدّث عنه، ونعرض أسماء النساء المتوفرات وصفاتهنّ غداً عصراً في الميدان الصغير، خلف منزلك مباشرة، إن كنت ترغب في الزواج تعال.

أضاف وأيضاً لم يسمع ردّي، ولا بدا مستعدّاً لسماعه:

– أهمّ شيء أن تكون عزوبيتك لأسباب اقتصادية، وأن تكون متديّناً، وسمحاً، وطيّباً، وإلّا فلا تحضر.

كانت سبّابته اليمنى قد ارتفعت في وجهي، وثمّة بصاق لزج تطاير مع الكلام، واستقرّ على وجهي.

قلت: «يا شـ...»، وأردت إكمالها يا شيخ، لكنّه مضى من أمامي، فشعرت برغبة ملعونة تدفعني للّحاق به، وإمساكه من لحيته، وإدخاله البيت وتقييده، ونزع ثلاثٍ من أسنانه البيضاء اللامعة.

أغلقت الباب وعدت إلى صالتي، أفكّر في موضوع الزواج الخيري ذلك. كان أشبه بالنكتة في كثير من حالاته، أو أشبه بلقطة سريعة تُمحى من الذاكرة بمجرّد أن تُلتقط، ذلك أن كثيرين لا يملكون بيوتاً ولا طعاماً، ولا حتى ألسنة طيّبة ومحبّة، زُوّجوا خيرياً لنساء كنّ مسالمات وسعيدات في عالمهنّ، وربّما لا يبحثن عن زوج، وكانت المحصّلة، أيّاماً قليلة من العسل، ثمّ لا شيء. كان الأمر في النهاية، بحسب رأيي، أداة من أدوات قهر المرأة، أداة لقرصها في خدّها، وإدخال السعادة الحزينة إلى قلبها. توقّفت عن التفكير ونمت. ثمّ تذكّرت وأنا نائم أنّ لديّ وظيفة لا بدّ من أن أكون فيها، فاستيقظت فزعاً، وكان لا يزال ثمّة وقت للّحاق بطوابير الذاهبين إلى العمل.

18

لم أكن أنوي الذهاب إلى موقع الزواج الخيري ذلك، وهذا أمر حدّدته منذ أمس، بالرغم من إقامته في ذلك الميدان الصغير خلف بيتي، كما حدّد الرجل الذي طرق بابي، وأقسمت أن لا أحضر طقساً كهذا، حتى لو جاؤوا بفتيات ناعمات مرعبات الجمال من روما ومدريد وطاجكستان. خرجت إلى الشارع، بداية العصر، لأشمّ الضجيج إن كان ثمّة ضجيج، وأرى مَن مِن سكّان المنطقة سيذهب إلى الساحة الخلفية. لم أكن أعرف سكّان الشارع كلهم، خاصّة أنّ الشارع ممتدّ وسطحي في تبنّيه للعلاقات، وفيه أزقة متفرّعة كثيرة يسكنها المئات. إلّا أنّ الوصول إلى الميدان يقتضي أن يمرّ الشخص قريباً من بيتي.

كان ثمّة أشخاص يسرعون بخطوات ثابتة. شاهدت عبد العال متأنّقاً في لباسه الشعبي الأبيض، ثوبه مغسول جيّداً، عمامته عريضة وتلائم رأسه المسطّح، حيّاني ببشاشة بدت دخيلة على طبعه، ولم يكن التائه معه.

قال وهو يحاول إصلاح عمامته على رأسه بالرغم من أنّها لا تحتاج إلى إصلاح:

– ألن تذهب للمشاركة في الزواج الخيري يا سيّد علي؟

– لا.. ليست لديّ رغبة.

– أنا لـديّ رغبـة. سمعت أنّ لـديـهـم حبشيات تـائبات، سأتزوّج واحدة.

– تائبات من ماذا؟

– من أخطاء العمل.

– ماذا كنّ يعملن؟

– تلك المهنة الشريفة.

توقّعته سيضحك، تلك الضحكة التي أشمّ تفاصيلها في العادة، وأتقزّز قبل أن تفرّ من حلقه، لكنّه لم يضحك. بدا جـادّاً، وحريصاً على جدّيته، ومستعدّاً لإيواء امرأة في بيته، حتى لو كانت من بنات الهوى، يقول تائبة، ولم أسمع بتوبة حقيقية عند نساء احترفن المتعة الكئيبة. تمنّيت له التوفيق، وأنا أعرف أنّهم لن يزوّجوه أبداً. كان دينه اسمياً بلا تقوى، وجيبه لا يتّسع لتحمّل مصاريف امرأة وعلبة سجائر في الوقت نفسه. فكّرت في التائه عوض سعيد، ترى أين سيذهب إن استغنى عبد العال عنه ورماه في الطريق؟ أظنّه سيلجأ إليّ، ولا أعرف كيف سأؤوي واحداً مثله، قد يسيء إلى مركزي الاجتماعي، بالرغم من أنّني لا أملك مركزاً اجتماعياً حقيقياً، هو مجرّد سراب مركز، هو أمل في مركز، هو طموح لامتلاك مركز.

ناديت عبد العال لأسأله هـذا السؤال الـذي من المفترض أنّـه غير ضـروري بالنسبة إلـيّ وأحسست بـه فجأة ضـرورياً جدّاً كالأوكسجين الذي أتنفّسه، لكنّ عبد العال كان قد وسّع خطاه وغاب خلف البيوت.

مددت بصري إلى الشارع، الآن زادت كثافة المرور، الناس يصبّون من كلّ الأزقة، شاهدت ثلاثة رجال مسنّين يسندهم بعض الصبية، يزحفون بهم إلى مهرجان الزواج، وجاءت عربة تتبع الشرطة

مليئة بالجنود، لا بدّ لحراسة المشروع الخيري، أو لإجهاضه، وفي الغالب لإجهاضه. انتظرت عند الباب حوالي نصف ساعة أتفرّس في الطريق، وأمدّ سمعي مسافات، وحدث ما توقّعته. كانت ثمّة ضجّة عظيمة، صياحات وأصوات تحطّم، ورائحة دخان وغاز، وأشياء أخرى تُستخدم عادة في الاستهزاء بالشعوب، وجاء المئات يركضون من أمامي وقد علق ببعضهم الوسخ والدم. كان عبد العال يعرج ويغنّي نشيد حماة الديار بصوت كئيب مختنق. قال: «لم يسمحوا لنا حتى بالنظرة الشرعية، ساقي مكسورة يا سيّد علي. ساقي مكسورة».

ولم تكن ساقه مكسورة، كان شعوره هو الذي انكسر.

بعد يومين من تلك الواقعة، سمعنا أنّ حزب الاتّحاد الاشتراكي ينوي أن يقيم زواجاً خيرياً لغير المقتدرين سيُعقد في داره مساء الجمعة القادم، وعلى الراغبين في الزواج تسجيل أسمائهم لدى سيّدة اسمها عواطف قصيصة كانت عضواً بارزاً في الحزب، ومنسّقةً للمشروع.

لم أكن بحاجة إلى تفكير عميق كي أعرف أنّه المشروع الذي سُرق من ذوي اللحى الجهمة والأثواب القصيرة البيضاء والحسّ الصارم، وأنّ النساء اللائي سيتمّ زجّهنّ فيه هنّ أنفسهنّ اللائي كنّ سيُخنقن بزيجات سريعة في ذلك المساء. أخبرت عبد العال بذلك، وأحسست أنّه أقلع عن الفكرة. يقول رأسي متصدّع وساقي مكسورة، ويردّد نشيد حماة الديار بصوت غاية في الضعف، كأنّه صوت نسمة.

التائه كان خاملاً وحزيناً، ويودّ لو زوّجوه هو في واحد من تلك المشاريع الخيرية، لكن لا أحد يزوّج شبحاً بمواصفاته. كان مستلقياً على سرير الحبال المرتخي في بيت عبد العال، وشيء في عينيه غامض جدّاً، كأنّه بكاء، أو كأنّه بداية نظرة تودّ لو اكتملت نظرة. قال: «لا أريدها حبشية تائبة، لا أريدها عاملة تنظيف تفوح من جلدها

رائحة القذارة، لا أريدها ملهمة شعراء، أو أرملة شهيد، أو واحدة من ضحايا الثورات الشعبية، ظهرها متورّم من سياط العساكر، أريدها من بنات الحيّ البدينات اللائي لا يلفتن النظر من شدّة البدانة». ثمَّ سكت، كان يشخر بوهن عندما غادرت متّجهاً إلى بيتي.

19

الرجل السمين الأشيب، عامل البلدية المحترم، الذي يستغلّ المؤامرات المزعومة التي تروّج لها السلطة أحياناً والانقلابات الفاشلة التي تحدث بين حين وآخر لعلاج ركبتيه، ظهر في حيّنا مرّة أخرى، وبالتحديد ذات صباح باكر، حين كنت أستعدّ للذهاب إلى عملي. لم يكن الأمر إعداد تقرير عن مرحاض معطّل في أحد البيوت، أو ماسورة كبرى من مواسير المياه انفجرت بغتة وأغرقت الطريق، أو برك الأمطار التي تتراكم في الشوارع عادة حتى لو لم يهطل المطر. كان هناك في قلب الشارع يصرخ ويركل التراب، ويتأوّه، ويركض حتى بداية الشارع ونهايته ويعود، وفي النهاية، توقف، هزّ ركبتيه مرّات عدّة وابتسم، واتّجه إلى حائط بيت سلوى، وبقطعة كبيرة من الفحم أخرجها من جيبه، كتب: «بالدم بالروح نفديك يا قائدنا».

ناديته مذعوراً، وأنا أفكّر في مضاعفات بلا حصر:

– هل حدث انقلاب في البلد أخي الكريم؟

– لا. لم يحدث شيء.

– إذن لماذا تمارس علاج ركبتيك بلا أسباب؟

– هذا بالضبط ما أعنيه، أن أفعل الصواب بلا إكراه، وعلاج ركبتيّ صواب ما بعده صواب.

لم أفهم شيئاً، الرجل يؤيّد النظام هذه المرّة من دون سقوط وعـودة، ويتحدّث عن علاج الركبتين، هـذا الرجـل محترم فعلاً، سأذهب يوماً إلى البلدية لأشكره عند رؤسائه، إنّه فعلاً يستحقّ الإشادة. كان الآن نشيطاً وسريع الخطى، ركبتاه ترقصان بتناغم. غادر شارعنا متّجهاً إلى شارع آخر، وأظنّه سيقضي وقتاً طويلاً وهو يوزّع تهذيبه واحترامه في الأمكنة. مضيت في طريقي متّجهاً إلى محطّة الباصات، وأنا أسمع سلوى بطرس من خلفي تتحدّث إلى نفسها بصوت مبتهج. كانت تشيد بالعبارة المبهرة التي خطّها السمين المحترم على جدار بيتها. أيضاً سمعت جاراً متأفّفاً، كثير الاستياء، يردّد في سخط: «متى سيعطف هذا الرجل المهذّب على حائط بيتي ويكتب عليه جملة من جمله الرنانة؟».

عند محطّة الباصات، كان ثمّة أشخاص كثيرون ينتظرون، معظمهم من الموظفين الذين لن يحلموا بشراء سيّارات خاصّة، ويتكبّدون مشاقّ التزاحم اليومي في المواصلات العامّة. عثرت على فجوة في الزحام ووقفت أنتظر. جاء الرجل المحترم، تزحزح بمشقة حتى وقف قربي. كانت فرصة لتأمّله. أسنانه بيضاء سليمة، أنفه محمرٌّ قليلاً، عيناه تشبهان عينَي كلب عجوز، وشيء في تسريحة شعره الأشيب ذكّرني بثعبان رأيته مرّة في إحدى المزارع. أظنّه أراد أن يتحدّث إليّ. لسانه منتفخ وداكن. وفي اللحظة التي قال فيها تس... جاءت حافلة صغيرة متّجهة إلى وسط المدينة، كان فيها مقعد لراكب، انحشرت فيه بسرعة، تاركاً كلمته أو جملته التي بدأها معلقة في المسافة بين حلقه وأذني المختبئة داخل الحافلة.

عند باب الإدارة، واجهتني لافتة كبيرة من القماش الأبيض السميك مثبّتة في الحائط، وقد كُتب عليها بخطّ أحمر منسّق: «مرحباً بالمدير الجديد لإدارتنا.. أهلاً وسهلاً».

إذن، فقد إسماعيل، بغيابه غير المبرّر، مركزاً مرموقاً لم يكن من السهل الحصول عليه لرجل بمواصفات القابلات الأمّيات. وحتى لو عاد إلى الظهور مرّة أخرى، فلن يظهر مستراً مبجّلاً، بل حطام مستر، متقاعداً وجلفاً وسريع الغضب، وغالباً سينحو منحى التركي المتقاعد الذي تُحكى قصّته دائماً، حين أقام سبيلاً للماء من أزيار عدّة أمام بيته، وكان يجلس طوال النهار آمراً العابرين العطاشى بالشرب من هذا وعدم الشرب من ذلك. إنّها قصّة قد تبدو مضحكة، وهزلية، لكنّها ليست كذلك. السلطة المطلقة تعود على الهذيان المطلق، وفقد السلطة إشهار حزين للهذيان.

تُرى من هو المدير الجديد لإدارة كان يملكها إسماعيل خاتم ويحيطها بكثير من الألغاز الصعبة الحلّ؟ وكان حتى أمس ثمّة نائب مدير انتدب من وزارة أخرى لتصريف الأمور، لم ألتق به أو أتعرّف إليه قطّ. حتى أوراق عودتي للعمل بعد الإجازة، أدخلها الساعي للتوقيع وعاد بها. أيضاً متى صدر قرار تعيين المدير، وحتى انصرافنا ظهر أمس لم يكن هناك قرار جرى تداوله؟

خطوت إلى داخل الإدارة مرتبكاً، كان الممرّ الرئيسي للبناء خانقاً ومكتظاً بالموظفين الذين كانوا في حالة صمت وبدوا لي في حالة هلع أيضاً، كأنّهم ينتظرون هزّة أرضية، أو هواءً مسمّماً سيُضخّ من مكان ما، أو كابوساً. ثمّ، وكأنّ خطواتي أحدثت توتّراً في الصمت، التفت المتجمّعون نحوي، ثمّ صفّقوا بقوّة، ومن خلف الأيدي القويّة المصفّقة، كانت ثمّة حلوق ناعمة تزغرد، إنّها حلوق الموظّفات.

مبروك المنصب مستر علي.

مبروك سيادة المدير.

عهد جديد مبارك إن شاء الله.

أسندني عدد من الناس منهم الساعي عبد الغفار، ودخلوا بي مكتب المدير الذي كان مرتّباً ونظيفاً وفيه كلّ خامات التفاعل المطلوبة للارتقاء بإدارة ما أو طمسها في التراب... أوراق، أقلام، دفاتر بيضاء وملوّنة، جهاز تليفون مذهّب، نظّارة للقراءة، علبة سيجار هافانا، مراوح يدوية بألوان الطيف، أباجورة، طفاية سجائر، مروحة في السقف تدور بخفة، حلويات من كواليتي استريت في علب أنيقة. أجلسوني على الكرسيّ، وازدحم المكتب بغتة بالناس.

قلت قبل أن تبدأ أيّ مراسم من المتوقع أن تبدأ، وأسمع صوتي غريباً وغبيّاً، وربّما يحتاج إلى تنظيف مضنٍ قبل أن يصل إلى الناس:

– من الذي عيّنني مديراً؟ لم أتلقّ أيّ خطاب رسمي من أحد.

– وصل خطاب تعيين سيادتك اليوم قبل ساعة، وأنت في الطريق.

– ولماذا لم يخبروني قبلها؟

ردّ أحد الموظفين القدامى:

– مؤكّد الموافقة جاءت اليوم، وأُعلن عنها فوراً، ها هو خطابك.

مدّ لي بيد مرتبكة خطاباً مطبوعاً بالآلة الكاتبة، صدر اليوم من وزارة الحكم المحلّي، مكتوباً فيه: «يُعيّن رسمياً السيّد علي صلاح، مديراً لإدارة الحكومات المحلّية، خلفاً للسيّد إسماعيل خاتم، الذي استقال من منصبه منذ فترة».

– هل إسماعيل استقال؟

سألت مستغرباً.

ردّ الموظّف القديم:

- لا طبعاً، إنّها صيغة روتينية ترد في الخطابات الحكومية. حتى الموتى لا يقولون ماتوا، أو انتقلوا إلى رحمة الله، ولكن استقالوا من العمل.

توتّرت جدّاً، ولم أستطع أن أعرف كيفية تعييني مديراً لتلك المؤسّسة الحكومية، وبيني وبين تلك الوظيفة أميال من التعاسة والحزن الوظيفي، ويوجد عشرات غيري هنا، قطعاً يستحقون أو يقتربون من الاستحقاق، ولا بدّ أنّهم الآن يزدحمون حولي بينما تزدحم داخلهم الضغائن كلّها. أنا غير مؤهّل، غير مؤهّل حتى لإدارة ورشة للنجارة، أو مطعم صغير في حيّ شعبي، وغالباً سأستقيل من هذه الوظيفة بغضّ النظر عن امتيازاتها، لا أريد سيّارة أو بيتاً في حيّ أفضل، لا أريد أصدقاء جدداً، ينبتون لي من الأراضي الوعرة للإنسانية، وموظّفين بلا كفاءة يتسكّعون قريباً من بابي بحثاً عن ثغرة ليدخلوا من أجل لا شيء، لا أريد عبد الغفار الساعي الحالم وسيجاره الخشبي، ولا السكرتيرة التي تعمل يوماً وتغيب عشرين يوماً ودائماً ثمّة عذر في لسانها.

وقفت فجأة، فتحت فمي وبدأ لساني يتحرّك لنزف الكلام، حين دخل أحدهم من الباب وفي يده ورقة، صرخ:

- عفواً يا أخ علي، عد إلى مكتبك فوراً لو سمحت، حدث خطأ في كتابة الاسم، سيحاسب عليه المسؤول بلا شكّ، المدير الجديد ليس أنت بل السيد علي صالح، المنتدب من وزارة الإعلام، منذ شهر ونصف، مديراً بالإنابة، وقد تمّ تثبيته مديراً.

كنت في قمّة نشوتي واكتئابي معاً حين غادرت المكتب الدسم من دون أن يلتفت إليّ أحد، إذ تزاحمت النظرات حول المدير

الحقيقي الذي لم أودّ أن أراه. نشوة لأنّ العبء الذي كنت سأحمله سقط سريعاً جـدّاً، واكتئاب لأنّ ما حـدث سيظلّ موضوع سخرية تتقافز من حولي لمدّة طويلة.

20

تغيّرات عديدة حدثت في الشارع الذي أسكن فيه خلال الأيام الماضية، بعضها يخصّ التائه، بعضها يخصّ عبد العال، وسلوى، وأمّها، وبعضها لا يخصّ أحداً على الإطلاق.

كان المدير الجديد لإدارتنا قد ألغى قرار نقلي إلى خور عاج تماماً، وعرفت أنّه تعمّق في الجغرافيا الكئيبة، وألغى اسم المنطقة من الخريطة الكبيرة المعلّقة في مكتبه، مستخدماً قلماً أحمر، وسيسعى لإلغائه من كافة الخرائط المعلّقة في مكاتب الحكومة، في أقرب وقت إن استطاع.

لا أعرف أيّ ضغينة له تجاه تلك البلدة البعيدة القاحلة التي تشتهر بالزحف الصحراوي، وبأنّ فيها أرواحاً من الجنّ تتشكّل في الليل، وتتحدّث مع السكّان في شتّى المسائل، حتى في النواحي المالية والاقتصادية. لكن قطعاً توجد ضغينة ما. وفي مثل هذه المواقف ضدّ مكان ما، أو أحد ما، يقولون دائماً «فتّش عن المرأة»، لكن لا أعتقد أنّ ثمّة رائحة لامرأة في هذا الشأن. أيضاً قيل إنّه تحدّث إلى السكرتيرة الغائبة في معظم الشهور، تاركة عبء التنسيق الإداري للساعي عبد الغفّار الذي كان في أحيان كثيرة يتولّى المكاتبات،

ويتسلّم الرسائل ويوقّع عليها، وربّما كتب خطاباً غير ودّي لموظّف لا يحبّه، فيه إنذار أو خصم من الراتب، وأدخله لإسماعيل ليوقّعه من دون أن ينتبه إلى أنّه خطاب كُتب بلا سلطة، وبواسطة ساعٍ لا يفرّق كثيراً بين الحروف وهو يستخدم الآلة الكاتبة. قال للسكرتيرة التي عثر عليها في مصادفة نادرة، حين جاءت لاستدانة بعض النقود من زميلة: «إمّا أن تظلّي غجرية وحمقاء وملعونة، أو تصبحي غجرية وحمقاء وملعونة»، فاختارت أن تصبح غجرية وحمقاء وملعونة، ولمّت ما تخبّئه داخل خزائن مكتبها من ملابس وأدوات للزينة مثل المانيكير، وأحمر الشفاه، وقلّامات الأظفار، والدهانات التي قيل إنّها تحافظ على البشرة نضرة ومهذّبة، وغادرت ربّما لتمارس الغياب في وظيفة أخرى.

لم أرَ هذا المدير في الشهر الأول من وجوده قطّ، لم أرد أن أراه، وكنت قد غادرت لحظة نزعي من الوظيفة وتنصيبه سريعاً من دون أن ألقي نظرة عليه، لا يومها ولا في ما تلى ذلك من أيّام. كنت أحسّ دائماً أنّ إسماعيل خاتم لن يسمح له بالجلوس طويلاً على مقعد هو من اختار أخشابه وأعطى مواصفاته للنجّار حتى ينحته، إضافة للجلوس المعنوي الذي كان أيضاً من تصميمه. ساعات كثيرة، يُخيّل إليّ أنّ إسماعيل موجود بالفعل، فقط متخفٍّ في هيئة موظّف صغير، ساذج، بهدف إنجاز تقرير ما عن السلوك الوظيفي في إدارته. ومرّة شككت في موظف عجوز، شاهدته جالساً على أحد المكاتب الهامشية، ولم يكن من موظّفي الإدارة الذين أعرفهم. كان قصيراً، ممتلئ الجسم، وفي قدميه الممدودتين إلى الأمام في تراخٍ حذاء لن يكون أقلّ من قياس 47، القياس المعتاد لأحذية إسماعيل. اقتربت منه، حيّيته ببذخ، وأردت أن أخبره بأنّني تعرّفت إليه بالرغم من تنكّره المتقن، حين أقبل موظّف آخر بسرعة، اقتلعني من المكان وهو يهمس: «ماذا

كنت تنوي أن تقول للرجل العجوز؟ هذا زوج أخت المدير الجديد، وجاء به من قبر التقاعد، لا تقترب منه مرّة أخرى». حتى خطاب إلغاء مهمّتي في خور عاج، لم يسلّم لي مباشرة، وجاءني إلى مكتبي بواسطة موظّف يملك صلاحية دخول مكتب المدير، والعودة بالغنائم أو الخسائر، لا فرق. كنت آتي في الصباح، أدخل مكتبي مباشرة، أتكدّس بصحبة أوراق كثيرة هي مشاريع لم تكتمل، وفي الحقيقة هي مشاريع من الوهم المكتمل، لأن لا قرية تتطوّر، ولا طريق ترابي وعر، يبدو مستعدّاً لأن يتحوّل إلى طريق مسفلت وسلس، الخدمات العامّة مثل الكهرباء ومياه الشرب والتعليم وعلاج الأمراض، كلّها أمنيات تحلّق في سماوات تلك القرى، ولا تهبط في أيّ حال من الأحوال. كلّ حكومة تأتي تتشدّق بأعذارها وفوضاها ولصوصها وتمضي. يأتي الديمقراطيون ليصفّق لهم الناس سنوات ويتغزّلون بفوضاهم، ويأتي الانقلابيون لسبب واحد وهو أن يمسكوا برأس الوطن، ويمرّغوه في التراب. كنت أفقه كلّ ذلك، وأعرف أنّني لو أُرسلت إلى خور عاج، لعثرت على مبنىً لا بأس به، أرفع في مقدّمته لافتة، وعلماً وطنياً، وأجلس مكتظّاً بالحزن، أبتسم للقرويين، أو أبكي معهم، ولا شيء آخر.

في أحد الصباحات، هاجمتني رغبة شديدة الوطأة في أن أرى المدير الجديد. لا أعرف ما السبب ولكن ربّما لأنّني عثرت قبل يومين داخل ملفّ من تلك الملفّات المكدّسة أمامي، فتحته مصادفة، على مشاريع ضخمة يُزمَع إنشاؤها في منطقة خور عاج، منها مدارس ابتدائية وثانوية، وجامعة ستُسمّى جامعة الراحل العظيم، من دون أن يُذكر من هو الراحل العظيم، وبالتالي سوف تظنّ كلّ أسرة فيها راحل عظيم أنّ الجامعة شُيّدَت تخليداً لذكراه. وجدت أيضاً أوراقاً تخصّ إنشاء مستشفىً يحمل اسم دكتور إتش تي رانجلر، ولم أكن أعرف من هو، واجتهدت لأعرف، ولم أصل إلى نتيجة. لعلّه مكتشف لقاح

الطاعون، لعلّه أول من زرع كبداً داخل مرضى فشل الكبد، أو جلداً للمصابين بالبهاق، أو لعلّه مجرّد اسم محفور في الدنيا بلا أيّ مجد. لكنّ أكثر ما استوقفني في تلك المشاريع كلّها، صالون لتصفيف الشعر باسم الراحلة أحلام صوالين، رائدة تصفيف شعر النساء في البلاد. أردت أن يرى المدير ذلك، وينال شرف تمزيق الملفّ، باعتبار أن لا منطقة جغرافية في الخريطة اسمها خور عاج بحسب ما فعله هو بالجغرافيا.

كان ثمّة سكرتيرة جديدة، جميلة فعلاً، بيضاء وشعرها مرفوع إلى أعلى، وتضع على أنفها حلقة من المعدن، مجاراة لموضة جيل الرفض، في نسخته النسائية، وكانت بلا شكّ نسخة أنيقة ونظيفة، وبعيدة كلّ البعد عن وسخ السراويل والقرف عند جيل الرفض الذكوري. المرأة إن رفضت أو لم ترفض، هي دائماً ذلك الكائن الممتلئ فخامة، وغموضاً، ورحابة صدر. كان اسمها «مسك الدار»، وكان اسماً لا يشبهها، ولا يقترب منها. تجرّأت مرّة وقلت لها، حين صادفتها في الممرّ تمشي بتناغم: «لماذا اسمك مسك الدار وليس غلوريا؟ أعتقد أنّ غلوريا يناسبك أكثر».

أظنّها تحمّست في ذلك اليوم كثيراً. وقفت حوالي ثلاث دقائق تقرأني، وربّما استعادت في ذهنها مرّات اسم غلوريا وصور فتيات أغلفة لمجلّات الموضة، حتى لو لم يكنّ يحملنه، قبل أن تردّ:

– تخلّف أسري ليس أكثر.

– ما رأيك إذن أن تصبحي غلوريا؟

– أصبحت فعلاً. قالت واستدارت مبتعدة، وعلى ظهرها ابتسامة استطعت قراءتها بوضوح. الآن لم يعد أحد في الإدارة يناديها بمسك الدار، وإن فعل أحدهم ذلك سهواً، حصل على تنبيه فوري، قد يمتدّ إلى إنذار.

وقفت أمامها والملفّ في يدي، قلت:

– مرحباً غلوريا، هذا ملفّ مهمّ، أدخليه على مستر علي لو سمحتِ.

قلت مستر، بالرغم من أنّ المدير الجديد لم يهيمن على ذلك اللقب بحدّ علمي حتى الآن، لكنّي نطقت الكلمة، وفي ذهني إسماعيل الذي ربّما يربض تحت المقعد في مكتب المدير.

الذي حدث بعد ذلك كان مربكاً بالفعل، فقد عدت إلى مكتبي، طلبت قهوة بلا سكّر، وانغمست من جديد في الأوراق، حين وقف أمامي شخص أعرفه تماماً، كان ممتلئاً، داكن البشرة، يرتدي قميصاً أبيض، وسروالاً رمادياً، ويضع ربطة عنق خضراء، وإن استدار فسأجد قطعاً بقعة من الدهن على سرواله. كان يحمل في يده ملفّ خور عاج، وقال بنبرة باردة:

– لنمزّقه معاً سيّد علي، أمسك.

مددت يدي بارتباك، وفي ذهني تتراقص صورة المدير حين كان يهدّد واحداً تحدّث عن الإغاثة في بيتي، ثمّ صورته وهو مستمتع بلا شيء في بيت سعد نزوة. أمسكت بطرف الملفّ، وأخرج هو من جيبه مقصّاً صغيراً كان داخل كيس من البلاستيك، قطع به الملفّ إلى نصفين، نصف له ونصف لي، مزّقناهما معاً وسط هتاف الموظفين الذين التمّوا من حولنا، وتصفيقهم أيضاً. انتهت المهمّة وامتلأت سلّة المهملات الموجودة عند مكتبي، وسلال أخرى أحضرها البعض من أمام مكاتبهم، بما كان وهماً لن يُنجز أبداً، وبالنسبة للمدير، ما كان اعترافاً بمنطقة هو ألغى اعترافه بها. استدار عائداً إلى مكتبه، وكانت ثمّة بقعة دهن لامعة وأخّاذة، وحزينة أيضاً، تحتلّ جزءاً من سرواله الرمادي. الحزن هنا كان مضاعفاً، لأنّه حزن ثريّ، حزن مغموس في السلطة.

في آخر النهار جاءتني غلوريا. كانت سعيدة بطريقة واضحة، كأنّها خطبت أو تزوّجت أو تنتظر حادثاً سعيداً. أخبرتني أولاً بهمسٍ بدا أخّاذاً وهو يتساقط من شفتيها، أنّني من المقرّبين لديها بشكل خاصّ، وأنّني يمكن أن أكون أخاها أو ابن عمّها على أقلّ تقدير، وأنّني لو كنت متقدّماً قليلاً في العمر، لربّما كنت والدها، وهي تتشرّف بأخوّتي، وأبوّتي، وثانياً أنّ السيّد علي صالح، مدير الإدارة، اعترف لها قبل قليل بعواطفه تجاهها، وأنّها مهتمّة بتلك العواطف وغالباً ستبادله الشعور. لم تسألني عن رأيي، ولم تأتِ أصلاً لتستند إلى رأي، أو تستعير رأياً، إنّها فقط لحظات سعادة مباغتة أرادت أن تشاركها مع أحد ما، وكنت ذلك الأحد ما، لحسن أو سوء حظّي لا أدري. كانت جريئة وهي تجلس على حافة مكتبي، ترفع غطاء الشعر عن رأسها وتعيده مرّات، وتخرج من حقيبة يدها المعلّقة على كتفها ورقة صغيرة فيها اسم شارع، ورقم بيت، تريني إيّاها بسرعة، وتعيدها إلى مكانها. مالت عليّ قليلاً وقالت هامسة: «سأخبرك بسرّ، لكن ليس اليوم». وحين خرجتُ من الإدارة واتّجهت إلى موقف الحافلات لأعود إلى بيتي، شاهدتها تقف في انتظار باص أو حافلة، وبدت أكثر امرأة سعيدة، موشومة بالحزن، شاهدتها في حياتي. قالت إنّ لديها سرّاً، وصراحة لم أكن متلهّفاً لمعرفته، سيكون غالباً سرّاً سطحياً، ولن يكون أكثر أهمّية من قصّة سقوطها في فخّ المدير.

21

فجأة ظهر عبد العال أمامي في وسط المدينة. كانت المرّة الأولى التي أشاهده فيها خارج الحيّ وشارع البيت بالتحديد، إذا اعتبرنا ذهابه معي إلى عرس سعد نزوة في حيّ بلا اسم، قبل أشهر، امتداداً شرعياً لوجوده في الحيّ. كان يرتدي ملابس غاية في الفوضى، ولم تبدُ لي ملائمة لمغنٍّ أصيل أو حتى مغنٍّ مسخ. قميصٌ أخضر فيه رسوم لورود وطيور، وسلاحف محنّطة، ويبدو في وسطه جليّاً فأر مفتوح الفم، وسروالٌ أحمر من قماش التريفيرا، بكفّة عريضة، فيه جيب واسع على الساق اليمنى. وكان يضع على شعره القليل دهناً نفّاذ الرائحة، وقد عاد إلى استخدام أمواس الحلاقة التالفة كما يبدو، لأنّ شاربه كان مجرّحاً في أكثر من ثلاثة مواضع، لكنّ أكثر ما أحزنني في لقائه ذلك، أنّه كان يضع عطراً هامشياً جدّاً، عطراً لا يمكن استيعاب قبحه أبداً، وغالباً تمّ تركيبه في متجر لا يتمتّع عمّاله بأيّ موهبة. كان يقف وسط مجموعة من الناس، كلّهم يدخّنون، وكلّهم بلا شوارب أو لحى. انتبه إلى وجودي قربه، فصاح:

– سيّد علي، ماذا تفعل هنا في هذا الوقت؟

– مكان عملي قريب من هنا.

وضّحت.

– وأنت ماذا تفعل، ومن هؤلاء؟

– أنا في مهمّة إبداعية، وهؤلاء من ضحايا التعذيب في السجون، أعرف بعضهم، وأعطيتهم سجائري.

كان سخاءً غريباً من عبد العال، والرجل برغم حالة الفقر الدائمة التي ينتهجها، وافتقاره للإبداع الذي يأتي بالمال، إلّا أنّه سخيّ، ومتغطرس، ويتحدّث عن غنائه برأس مرفوع وصوت غاية في الكمال المعنوي. كنت أتأمّل ضحايا التعذيب، والآن أحصيتهم، كانوا ستة، كلّهم في منتصف العمر، وكلّهم يبدون بلا ذاكرات. كانت السجون وما تزال في العهود الوسخة مقابر للذاكرات والمشاعر، والذي يخرج منها يحتاج غالباً لتأهيل لن يمنحه إيّاه أحد.

– ما هي التهم التي عُذّبوا من أجلها؟

سألت بفضول، ولم يكن سؤالاً ضرورياً لأنّ التعذيب لا يحتاج إلى تهمة، إنّه رسالة كئيبة، ينبغي أن يتسلّمها بعض الناس، وغالباً يتسلّمونها، ودرسٌ قويّ في الحزن، يتمّ تلقيحهم به، إنّه طبع الديكتاتورية، طبع السجّانين مثل الرقيب أول حمّاد، الذي يستطيع أن ينخر بسيخ من الحديد مستقيم رجل طيّب ومسالم، وفي أوقات فراغه يصاحب الحسناوات، يتغدّى معهنّ في المطاعم المبهرجة، ويودّعهنّ في محطّة القطار وهو في قمّة الأناقة والزهو. هنا أيضاً أردت أن أبكي، لكنّ دموعي سخيفة، سخيفة جدّاً عند الحاجة إليها.

عبد العال لم يجبني، أمسك بيدي، وجرّني بعيداً:

– تعال، أبحث عن شاعر لأغنياتي لأنّ جبريل المتنبّي، شاعر أغنياتنا أنا والتائه، مات.

– الرجل صاحب المشيات الثلاث الذي يشبه حفّاري القبور؟

– نعم، هو بعينه.

كان من الواجب أن أترحّم على الشاعر الذي سمّى نفسه المتنبّي، لكنّ أفكاري انفلتت، وحطّت في فراغ مضنٍ أختزنه في ذاكرتي عن علاقة التائه وعبد العال بالغناء. لم يكن ثمّة مغنّيان صراحة، وقطعاً لم يكن المتنبّي هذا شاعراً يُعوَّل عليه. ورجل يغذّي مغنّيين وهميين بالعواطف قطعاً لا يملك عاطفة. كانت السيجارة متوهّجة في فم عبد العال، وأنفاسه أيضاً متوهّجة، وأنا أشمّ الدخان والأنفاس معاً، ولا أستطيع أن أميّز، أيّهما رائحة أنفاسه، وأيّهما رائحة دخان سيجارته.

– لروحه السلام.

هذا ما استطعت قوله في النهاية. عبد العال كان بالقطع يترقّب مثل تلك الجملة منّي، وربّما يترقب جملة أفضل منها تقال عادة في هذه المواقف، مثل: له الرحمة والمغفرة، أو مثواه الجنّة، لكنّي لم أقل ذلك، وهو استراح ضمنياً، ألقى بما بقي من سيجارته على الأرض، داس عليها بقدمه اليمنى، وردّد ما لم أردّده: «له الرحمة والمغفرة، مثواه الجنّة. جبريل كان شاعراً حقيقياً».

آثرت تغيير ذلك المشهد، لكنّي لم أشعر بأنّني متعجّل للذهاب إلى عزلتي، فثمّة فضول يحثّني على مرافقة عبد العال، ومشاهدة طقس الحصول على شاعر بديل:

– وأين ستعثر على شاعر غنائي؟

– هناك.

وأشار إلى نقطة ليست بعيدة.

حين وصلنا إلى مكان تجمّع شعراء الأغنية، مدّ لي عبد العال يده. قال:

– أعطني خمسة جنيهات لو سمحت.

أدخلت يدي في جيبي. كانت لديّ ثلاثة جنيهات فقط، وبعض العملات المعدنية الصغيرة التي نتسلّمها دائماً من الدكاكين، وتتكدّس أحياناً في الجيوب بطريقة مزعجة، لم أرد لها أن تضيع في تفاهة ليس من المستبعد أن يقترفها واحد مثل عبد العال.

قلت:

– لا أملك المبلغ، عندي نقود قليلة.

– أعطني إذن ما يكفي لسندوتش بيض مسلوق وزجاجة بيانكا.

أعطيته عدّة قروش وضعها في جيبه ومشى خطوات نحو ثلاثة رجال مسنّين كانوا يجلسون على الأرض الجافّة، وفي أعينهم لا شيء تقريباً، كأنّها أعين نظرت ما يكفي من السنين وتوقفت عن النظر. لم يكونوا عمياناً، لكن فقط بلا نظرات. وقف أمام الرجال، ووقفت خلفه. قال:

– أبحث عن أغنية مبتكرة، في العيون السود والشعر الحريري والصدر الناهد يا أساتذة.

اثنان منهم لم يعلّقا، ولم يغيّرا فراغ نظراتهما، والثالث تحرّك قليلاً، وبدت شبه نظرة في عينيه:

– عندي قصيدة كتبتها عن أرملة اللواء أركان حرب ج.ي، هل سمعت بها؟ أعني تلك الملهمة العظيمة؟

هزّ عبد العال رأسه إيجاباً، وكنت متأكّداً من أنّه لم يسمع بها، أو بغيرها من النساء الملهمات، وقطعاً ما كان يكتبه شاعر أغنياته جبريل المتنبّي، هذا إن كان يكتب فعلاً، مجرّد هلوسات في تخيّل النساء. أنا أيضاً لم أسمع بتلك المرأة قطّ، واستغربت أن تكون أرملة لواء ما تزال توحي بالشعر، باعتبار أنّها ليست بالقطع فتاة يانعة. مهما يكن، أنا لست شاعراً، ولا أعرف أصلاً كيف يمكن حلب الشعر من ضروع الجمال سواء كانت ممتلئة أو يابسة...

– إذن ستعجبك.

قال الرجل، وأخرج من جيبه ورقة مطويّة قدّمها لعبد العال، الذي فتحها بتأنٍّ، اطّلع على محتوياتها سريعاً، ثمّ بكى. كان يبكي بصدق، واستغربت فعلاً. حتى النقود التي منحها للشاعر ابتلّت بدموعه، والورقة التي وضعها في جيبه ابتلّت أيضاً. حين أنهى حصّة الحزن تلك سألته:

– لماذا أبكتك القصيدة؟

ردّ:

– كانت الورقة بيضاء.

بعد دقائق افترقنا. تركته يتسلّق شاحنة مكدّسة بالتعب متّجهة إلى منطقتنا، وفيها مجنون يطلّ من أعلى برأسه المغطّى بعمامة سوداء صارخاً: «تسقط الحكومات كلّها، يسقط العقل، يسقط الفعل الماضي والمضارع، يسقط المستقبل...».

حمت قليلاً في موقف الحافلات، اشتريت قلّامة أظفار وعلبة من اللبان الملوّن وشريطاً لاصقاً من بائع جوّال. كنت أحتاج إلى قلّامة الأظفار، لكن اللبان والشريط، لماذا اشتريتهما؟

بعد نصف ساعة تقريباً، عثرت على حافلة جديدة تدخل الموقف متهادية، ركبت فيها.

في المساء، وأنا متّجه نحو دكّان الحيّ لشراء رغيف وعلبة تونة، شاهدت عبد العال يجلس على الأرض أمام بيته، أمامه الورقة البيضاء التي تسلّمها من الشاعر، يحاول تلحين فراغها بصمت كامل، فقط يداه وركبتاه تهتزان، وما بقي من حزن الصباح مهيمنٌ على وجهه. قلت:

– هل تلحّن الفراغ؟

– لا... ألحّن العواطف المختفية في الفراغ.

فجأة تذكّرت التائه، وأنّني لم أره معه في اليومين الماضيين، سألت:

– أين ذهب رفيقك؟

– أخذته أمّه.

– هل لديه أمّ؟

سألت مندهشاً، فلم أكن أتوقع أن تظهر لذلك الولد المكحّل المعتلّ الممتدّ الرموش أمٌّ على الإطلاق، كنت أتوقعه من أبناء الشوارع، أولئك الذين تلقّحت أمّهاتهم بالعيب ورمينهم، تماماً مثلما فعلت سميّة أم نميري، والمرأة أمّ حدقة العين. لكنّ نميري عاد إلى أمّه، وحدقة العين لا أعرف هل عادت أم لا...

– نعم لديه أمّ كانت تبحث عنه مِنذ زمن بعد أن فرّ من بيتها كما عرفت، وزادت لهفتها حين مات أحد إخوته في حادث مأساوي.

– جاءت إلى هنا إذن؟

– نعم، منذ يومين، ونسيت أن أخبرك، شتمتني أولاً، ثمّ أخذته وهي تصرخ: «لن أتركك تموت مثل نجم الدين».

أحسست ببرودة ما، برعشة في جسدي، بجوع في الخلايا يحتاج إلى شبع فوري. نجم الدين الذي مات في حادث مروّع، ابن المرأة الخمسينية، التي لا أعرف اسمها، يكون التائه أخاه؟! أم هي مصادفة أخرى من مصادفات الرعب أن يكون للتائه أخٌ بالاسم نفسه، مات في حادث آخر. كنت أسمع عبد العال يقول:

– على فكرة، التائه اسمه الحقيقي شمس الدين، كما كانت تقول أمّه، والاسم الذي عرفته به قبل أن تسمّيه التائه، كان جمعة.

كانت معلومات غزيرة في مادّة كان من الممكن أن تكون غير ضرورية في حياتي، لولا أنّها أصبحت ضرورية بالفعل، كان لا بدّ من

أن أتأكّد، وبسهولة شديدة، فأمّ نجم الدين تغبّر الكلام، تأكل نصفه، وتلقي بنصفه الآخر، شبه مأكول.

– هل كانت تأكل الكلام؟

– نعم، ظلّت تشتمني نصف ساعة ولم أفهم منها غير عبارات قليلة.

ردّ عبد العال، وأمسك بالورقة الفارغة، رفعها إلى عينيه، وبدأ يتمتم بكلمات مبهمة كأنّه عثر على سرّ، أو مفتاح يلج به عواطف الرجل المسنّ.

حين عدت من الدكان بعد أن اشتريت عشائي، كان عبد العال قد اختفى، لا أدري داخل بيته أم خارج الحيّ، فقط انتبهت إلى كتابة جديدة بالفحم على حائط سلوى بطرس، تحت الكتابة الأولى التي نحتها الرجل السمين الأشيب، كانت: «نحن جنودك يا فارسنا».

اقتربت من الحائط، كانت ثمّة آثار لحذاء ثقيل عربد في الأرض هناك، وركل عدداً لا بأس به من الحصى والحجارة، إذن فقد عاد السمين ليعالج ركبتيه في حيّنا الذي يبدو أنّه أصبح مكان العلاج المفضّل بالنسبة إليه.

22

– بارك لي يا سيّد علي، اشتريت البيت أخيراً.

– أيّ بيت؟

– الذي أسكن فيه.

كانت تتحدّث بانتشاء مبالغ في رصفه، صدرها الذي يهيمن على مشاهد اللقاءات معي في العادة، لم يبدُ مهمّاً هذه المرّة مقارنة بالابتسامة المجدية والمرعبة في آن واحد التي اكتملت على شفتيها، كانت تضع مكياجاً كثيفاً على عينيها، مكياجاً من النظرات المحبّة للحياة.

– ألف مبروك سلوى.

مددت لها يدي، فاحتوتها بين يديها الاثنتين، ورفعت الخليط المكوّن من لحمي الناشف ولحمها الطري إلى فوق، راسمة به انتصاراً عذباً في الأفق. هذه المرأة سلوى، تعرف حيلاً كثيرة، وتغامر بثوابت كثيرة، وأيّ جار نذل يفتح بابه الآن، ويرى اليد المشبوكة بين يدين، لن يغلق الباب ويذهب لشأنه، إنّها سمة عصر بداية السبعينيات، العصر الذي نعيشه أنا وهي الآن، ويعيشه معنا آخرون، ربّما أفضل، أو

ربّما أتفه، وهو عصر مهما حاول البعض تنظيفه من وسخ الأفكار، يظلّ وعاءً كبيراً لها.

سحبت يدي من بين يديها برفق، ثمّ بشيء من الخشونة، أردت أن أسألها كيف حصلت على ثمن البيت، وأعرف تماماً أنّ شراء بيت حتى لو كان قرب الصحراء أو في قلب الريف، أو داخل حيّ للمواخير، ليس متاحاً إلّا لعدد قليل من الناس، وهي التي تدّعي ممارسة العلاج الروحي، لن تكون من بين ذلك العدد. وحتى لو افترضت أنّها ليست معالجة، وتستخدم مؤهّلات أخرى في الكسب، فلن تستطيع شراء بيت.

عاد تفكيري إلى المدير إسماعيل خاتم، إلى اختفائه الغريب، والتكهّنات التي قيلت بشأن نزوحه إلى الريف برفقة امرأة. ربّما أعادت له الشره القديم، لكن لماذا لا يكون لها يد في اختفائه؟ في الحقيقة، لقد حامت التكهّنات حول السراب البعيد، حول شحّاذين لم يرهم أحد، وامرأة مفترضة لم يرها أحد أيضاً، ولم تحُمْ حولها، وهي من شاهده قبل اختفائه بفترة وجيزة، ومن ينعم الآن بثروة مكّنتها من شراء بيت. لماذا لا تكون تلك الثروة غنيمة من رجل مات بيد آثمة؟

– ألف مبروك، سعدت لك كثيراً.

قلتها مرّة أخرى، خوفاً من أن يكون شيء من أفكاري تسرّب إلى شفتيّ من دون أن أدري، وهذا يحدث أحياناً، حين تودّ أن تتحدّث بأفكار تختلف كثيراً عن التي تتصارع في ذهنك، تجاه شخص ما، أو حدث ما، وتنتصر التي في ذهنك، تنطلق إلى اللسان، وأظنّ هذا ما حدث بالفعل.

– ماذا كنت تقول عن إسماعيل؟

– ماذا عن إسماعيل؟

– سمعتك تذكر اسمه.

– لا، كنت فقط أبارك لكِ وأتمنّى لو ظهر مستر إسماعيل ليبارك أيضاً.

لم يكن حديثاً مقنعاً، في الواقع كان تبريراً أجشّ، لحديث أجشّ، مؤكّد سمعته كاملاً وادّعت سماع جزء منه. كنت أفكّر أنّها آذت مديري، وقلت ذلك من دون أن أدري. استدارت لتعود إلى بيتها وقد ضاق قميصها الأخضر فجأة، كأنّ جسدها تورّم من الغيظ، ثمّ التفتت نحوي:

– تظنّني قتلت مديركم؟

– لا... أبداً.

– بل تظنّ.

– أبداً... أبداً.

– التائه قال أنا قاتلة رجال، هل صدّقته؟

– أبداً... أبداً...

لحقت بها، أمسكت يدها بقوّة، أدرتها ناحيتي وأنا أحاول أن لا ألتقي بعينيها اللتين خلتهما حمراوين جدّاً، اعتذرت لها بكلّ ما ورد إلى ذهني من عبارات، لدرجة أنّني أقسمت لها بعزمي على ترشيحها في مسابقة امرأة العام، التي أعرف عدداً من القائمين عليها لن يمنحوا اللقب لأحد غيرها.

– امرأة العام؟ على أيّ إنجاز سترشّحني؟

– لا تحتاجين لإنجاز كبير، سنقول إنّك ابنة رائعة، تقوم بخدمة أمّها فاقدة الذاكرة.

– لكنّ أمّي ليست فاقدة الذاكرة، ذاكرتها أقوى من ذاكرتك. هو فقط مرض الأمنيات، وهذا شيء لا يحدث كلّ يوم.

– لا يهمّ، سنقول فقط، وسيقبلون الترشيح، هل رضيتِ؟

لم تردّ، فتحت بيتها ودخلت، وتركت الباب مواربًاً كأنّها تودّ لو دخلت خلفها، أو كأنّها تودّ لو مددت يدي وأغلقته أنا. وكنت سأمدّ يدي حين توقفت عربة أجرة قديمة من ماركة زفير بجانبي، ونزل منها رجل ضخم، مسنّ، يرتدي عمامة كبيرة، ومعه امرأة شابّة في ثياب ملوّنة. بقليل من التفكير، استطعت أن أخمّن أنهما صاحب نفوذ وضحيّة، لكنْ ثمّة شيء مفقود، إنّه الشيء الذي كان يبحث عنه إسماعيل، لكنّ إسماعيل كان بلا شريك معروف، وربّما اتّخذ المعالجة الروحية شريكاً محتملاً، وربّما ضاع بسبب لهفة لم تكن في محلّها. مرّ الرجل ورفيقته بجانبي ولم يكترثا لوجودي، كأنّني بقعة في الأرض التي يمشيان عليها، كأنّني ضلفة الباب المغلقة التي لن يضطرّا للمسها، وسيمرّان من الضلفة المواربة، أو في أقسى تعبير، كأنّني لا أحد.

فجأة تشنّجت، ابتدأ جزء من تفكيري يتّجه للأذى، والجزء الذي لم يتفاعل، يحاول جرّه إلى عدم التفاعل، ماذا لو خنقت هذا الرجل وأنقذت الفتاة من فحولة لا يملكها ويسعى للحصول عليها؟ ماذا لو ذهبت إلى بيتي، عدت بسكين غبيّ، حشرته في عنقه، وجررت الفتاة بعيداً؟ ماذا لو انتقمت من سلوى نفسها لقدرتها على ترسيخ معانٍ غاية في التفاهة في ذهن الليل والنهار على حدّ سواء؟ قالت إنّ إسماعيل كان يأتي متخفّياً في الليل، بعد أن يغفو الشارع، ولذلك لم أره، وكان هذا كفيلاً بأن أمقت إسماعيل نفسه، وأفكّر في ذبحه لو عاد مرّة أخرى.

ركضت سريعاً إلى بيتي، جلست على الدكّة الملاصقة للباب، وأنا أحاول جاهداً أن أتملّص من الرغبة الغريبة الأطوار تلك... لماذا أنا معنيّ بكلّ ذلك؟ الضحايا يعرفون أنّهم ضحايا، بمجرّد أن ترفرف أمامهم اللعنة، ويرضون بذلك. وأصحاب النفوذ لا يجرّون أحداً من

يديه أو ساقيه، إنّهم يهزمونه بلا سلاح، ربّما بابتسامة فقط، ربّما بوعد لن يُنفّذ، وهذا معروف للجميع. هدأت، هدأت جدّاً، استعدت طبعي المسالم، وغفوت أيضاً بالرغم من أنّ الليل لم يقبل بعد، الشمس ما زالت حيّة إلى حدّ ما، والشارع ليس ضاجّاً، وأيضاً ليس صامتاً أو أخرس. ثمّة كوابيس باغتتني، مثل المرّة الأولى التي جلست فيها على هذه الدكّة. هناك قطّة سوداء احتكّت بقدميّ، لعقتهما قليلاً ومضت، صفيحة زبالة تشاجرت مع جردل مملوء بالماء، أشخاص يتعثّرون وهم يجرّون جسداً ثمّ يحملونه ويدخلون به بيتي، رائحة مقبرة، رائحة صبّار حزين، رائحة نعي في مكان ما، رائحة أغنية من ألحان رجل ميّت، وهناك، بعيداً قليلاً، فتاة صغيرة بثياب ملوّنة، تتحدّث إلى امرأة ناضجة كبيرة الصدر، وتبتسمان. حين استيقظت من كوابيسي، كان الليل مسيطراً جدّاً، الهواء بدا لي مقيّداً إلى رطوبة ما، والشارع صامت إلى أقصى حدّ. لم تكن غفوة إذن، كان رقاداً كاملاً امتدّ قرابة خمس ساعات، رقدته من دون أن أدري.

نهضت لأدخل البيت، وشاهدت عربة الأجرة التي جاءت بالعجوز والفتاة، تتوقف مرّة أخرى أمام بيت سلوى.

23

في حيّ المستشفى، لم يستدلّ أحد على بيت آل التائه أبداً، لا أحد يعرفهم هناك، وكلّما سألت شخصاً أتوقع أن يكون من السكّان الجدد، أو القدامى الذين شاخوا وانقطعت معرفتهم بي ومعرفتي بهم، عن امرأة تجاوزت الخمسين ولديها أحد عشر ولداً، مات أحدهم في حادث، أجده يردّ: «لا والله»، أو «لا أعرف»، أو «لم أسمع بولد مات في حادث»، وهناك من يسأل: «مَن زوجها؟»، وحقيقةً لا أعرف زوجها، وإن كان موجوداً أو ميتاً، أو فرّ إلى مكان آخر.

كانت ثمّة آلة ضخمة صفراء اللون تحرث الميدان، وتحفر عميقاً فيه تمهيداً لتغيير فادح كما بدا لي. غالباً سيشيّدون سوقاً، أو استاداً رياضياً، أو مقبرة للموت الجماعي، الذي يحدث أيّام الثورات والانقلابات. أتأمّل بقعة مطموسة وسط آثار الحفر. هنا كان يرقد الولد، وقبله كانت تجلس أمّه، تحمل نميري وحدقة العين. بعض الناس صُدموا من اسم الرئيس الذي أطلق على الولد الرضيع، ثمّ تفهّموا الأمر، واستحوا من رعبهم، وضحكوا، وبعضهم ارتعبوا وفرّوا من الميدان. كان الوقت ظهراً حين عثرت على الفتاة التي كان يغازلها نجم الدين، كانت تقف متّكئة على آلة صغيرة من آلات الحفر

أيضاً لكنّها متوقفة، وبجوارها صبيّ مرتبك، هي من تغازله، وتحاول تعليمه بعض الثوابت كما بدا لي من شفتيها المنفرجتين، ولسانها الذي يغلي، ويديها اللتين تشير بهما إلى أماكن غامضة في جسدها.

اقتربت منها وقلت:

– مرحباً ليلى.

بالطبع لا أعرف اسمها، لكنّ اسم ليلى كان أكثر الأسماء الأنثوية انتشاراً في تلك الفترة، ولن تجد بيتاً من البيوت في البلاد، إلّا فيه فتاة اسمها ليلى، حتى الذين لم يلدوا فتيات حتى الآن، يحتفظون بآمال عريضة أن تأتيهم ليلى ذات يوم.

الصبيّ المرتبك فرّ بسرعة، كأنّني خلّصته من قيد، والفتاة انتفشت أمامي، وقد تبدّلت ملامحها الأنثوية بسرعة، تحوّلت إلى ملامح جزّار، أو صائد ثعالب، لا أدري. كنت قد سرقت نجم الدين منها في ذلك اليوم الذي عثروا فيه على حدقة العين، وكان يعلّمها ما تعلّمه للشابّ الآن. لكنّ نجم الدين لم يتكدّر كثيراً، بدا حزيناً فقط وهو يذهب معي، ويتلفّت إلى الخلف بين حين وآخر، بعكسها الآن، بعد أن تمرّنت ونضجت بالرغم من أنّها لم تتعدّ الرابعة عشرة كما قدّرت:

– كيف عرفت اسمي؟

– أعرفه، أنا عمّ نجم الدين.

– من نجم الدين؟

– المرحوم، الشابّ الذي دهسته سيّارة قبل أشهر في طرف هذا الميدان، وكان يرقد هنا.

كنت مستغرباً فعلاً أنّها تقف في البقعة نفسها التي كان يرقد فيها مغلّفاً بورق الجرائد، ويبدو أنّني تحمّست في التوضيح، لأنّني

انحنيت ألمس المكان بيدي التي احتكّت بجزءٍ من ساقها عن غير قصد، كانت ساقاً ملساء وقد دُهنت بشيء رطب.

– أولاً لا أعرف نجم الدين هذا، ولم أسمع به من قبل، ثانياً لا تبدو مثل الأعمام المحترمين، أنت قاطع طريق، اذهب قبل أن أصرخ. يا صابر... يا صابر...

كانت تنادي على الولد المرتبك بلا شك، والولد الآن غير موجود في مدى الرؤية، أو ربّما موجود في مدى رؤيتها هي، لا رؤيتي. ابتعدت سريعاً خوفاً من إثارة مشكلة لا أريدها في الوقت الحاضر، لكنّ ذلك لم يمنع أنّني استغربت السلوك العدائي لمراهقة كنت أتوقعها ستسقط من الرهافة حين أذكّرها بولد كان يغازلها ومات وشاهدته بلا مخ، تحيطه الشهقات، وفرّت. هذه الأسرة غريبة، أعني أسرة المرأة الخمسينية التي سأسمّيها العازة، وأبنائها الأحد عشر الذين مات منهم واحد أعرفه، وعاد إلى الأسرة واحد كان ضائعاً وأعرفه جدّاً. لا أريد شيئاً من هذه الأسرة، أريد فقط أن أتأكّد من أنّ التائه بخير، وأنّه يتلقّى العلاج من مرض الربو والاضمحلال الجسدي في مستشفى ما، وأيضاً لأعطيه بعض النقود التي قد يحتاج إليها. التائه، أو شمس الدين، هو أكثر الأشخاص تأثيراً فيّ على الإطلاق، واكتشفت الآن فقط وأنا واقف في وسط ميدان حيّ المستشفى لماذا أثّر فيّ كلّ هذا التأثير. كان نسخة مطابقة لقريب لي مات في مشاجرة ونحن في سنّ السابعة عشرة، ذاك أيضاً كان ممتدّ الرموش، وواسع العينين، ويحاول أن يغنّي، وثمّة أخطاء كثيرة في صوته. حين سمّيته التائه، لم أكن أذكر ولا أدرك أيّاً من ذلك، لكنّي الآن أعرف، الآن تذكّرت.

كانت الحفّارات قد أزالت النافورة الجافّة، وتلك الحجارة التاريخية التي كانت مرصوصة في المكان، أزالت أيضاً كلّ أشجار

النيم التي كانت تهب الظلال، ولم يعد ثمّة حاضر لميدان حمل فداحة الماضي بكثير من المودّة، وكان يحمل الحاضر أيضاً بالمودّة ذاتها، ولو كان حاضراً يُعثر فيه على اللقطاء، ويموت فيه الشباب بحوادث مروّعة.

عبرت إلى المستشفى الذي كان بناءً قديماً كبيراً ممتدّاً في تلك الظهيرة، كمارد أجرب، حوائطه تهدّمت أجزاء منها، عياداته الخارجية مزدحمة، وأشمّ رائحة المغص والنزلات المعوية والتلف في كلّ شيء فيه، حتى المطهّرات، وأدوات التعقيم. مددت رأسي إلى داخل عيادة النساء، شاهدت الدكتورة غيثارة، التي كان والدها ممرّضاً وعازف عود متمكّناً، وكانوا من جيراننا. بدت ساحرة، وإنسانية، وهي تضع السماعة الطبّية حول عنقها، وتمشي في الممرّ بخيلاء متّجهة إلى غرفة الكشف. شاهدت عبد المنعم، الذي كان شابّاً من أبناء جيراننا القدامى أيضاً، فُصل من كلّية الهندسة بعد نوبات من الفصام الحادّ، أراق فيها الكثير من الهلوسة، واعتدى فيها على زملاء له هناك، وكان الآن يُعرف بحبيب غيثارة، التي أحبّها بناءً على هاتف غيبي ناداه ذات ليلة كما قال. كان يتبعها في المستشفى صامتاً طوال اليوم، ويحفظ مواعيد مناوباتها الليلية، ويحضرها كاملة، من دون أن تتّخذ أيّ إجراء في حقه. «إنّه ذيل فستان مجرور خلفي ليس إلّا»، هكذا صنّفته واستمرّت حياتها عادية حتى بعد أن تزوّجت.

فكّرت أن أسأل الدكتورة لأنّها تعرف الناس بلا شكّ، ثمّ تذكّرت أنّ أسرتها مثلنا، تركت الحيّ منذ سنوات طويلة، وقطعاً محت كلّ صلة لها بالمكان.

عند العصر، وأنا جالس أتغدّى في مطعم شعبي مواجه للمستشفى من ناحية الباب الذي تدخل منه السيّارات اسمه مطعم قرموش، شاهدت الفتاة ليلى، التي تحدّثت إليها منتصف النهار،

وتنصّلت من معرفة نجم الدين. كانت قد غيّرت ملابسها، ووضعت قرطاً لامعاً على أذنيها، وتقف قريباً من الباب، تحكّ رقبتها بما خلته قلم رصاص خاملاً. كنت أراها جيّداً، ولا بدّ أنّها رأتني ولم تتذكّر أنّها رأتني من قبل. بعد دقائق توقفت سيّارة من ماركة فوكسول، رمادية وهيكلها مخدوش في جوانب عدّة أمامها، فتحت الباب الأمامي، وركبت. كان ثمّة رجل نحيل، أشيب، يجلس خلف المقود، وضحكات منغّمة لفتيات تأتي من المقعد الخلفي. حين اختفت السيّارة، عاودني التفكير في الآثام، ليس آثامي وحدي ولكن آثام الدنيا كلّها. هذه أيضاً فتاة حزينة وتائهة، إنّها نسخة أنثوية من نجم الدين، نسخة بلا حظّ.

سرت قليلاً مبتعداً عن المكان في اتّجاه الشارع الرئيسي حيث يمكن أن أعثر على حافلة تعود بي إلى حيّنا. كنت أمشي ببطء، وذهني يعمل بلا توقف، أحياناً أنفضه عن التائه وغير التائه، وألعنني لامتلائي بأشياء لا تعنيني، وأحياناً أعود لملئه مرّة أخرى بتلك الأحزان التي أعتبرها أوكسجيناً حيوياً لا بدّ من التفاعل به ومعه. حين وصلت إلى الشارع الرئيسي ووقفت، مرّت بقربي درّاجة بلا رفارف، يقودها فتىً نحيل، ينتعل حذاء أديداس لامعاً ومتيناً في قدميه. ابتسمت له وابتسم لي، وقطعاً لم يتعرّف إليّ لكنّها المودّة التي تنشأ من العطاء، هذا الولد سيبتسم لكلّ شخص في عمري، أو في طولي ووزني، لأنّ ذلك يذكّره بهديّة يعتزّ بها الآن ولا يعرف أنّها كانت هديّة لآخر، لم يسعفه الحظّ أن يمتلكها.

وقفت طويلاً، ولم تمرّ حافلة، ولا حتى شاحنة، من تلك التي عُدّلت ووُظّفت في خطوط النقل، لتسيء إلى البشر. وفي اللحظة التي قرّرت فيها أن أستوقف سيّارة أجرة، من تلك التي لا يتوقف مرورها في الشارع، ويطالعني سائقوها بعشم، شاهدت سميّة رمضان.

كانت قد امتلأت كثيراً، صار لها بطن بشع، وصدر مترهّل، وأصابها ثقل واضح في المشي، لا يشبه الثقل الأنثوي الرزين المعتاد، لكنّ وجهها ظلّ هو الوجه الذي أعرفه. كانت وسط نساء قادمات من مكان ما، أو ذاهبات إلى مكان ما، وكانت تحمل طفلاً مورّد الخدّين، في ثياب صغيرة زرقاء أنيقة، وطربوش أحمر على الرأس. إنّه نميري الذي ولدته ورمته وتبنّته من جديد، كان قد كبر قليلاً، بات يملك ملامح وابتسامات، ويضحك، حين تقرص خدّه واحدة من النساء. سميّة لم تنتبه لوجودي، وأنا أيضاً كنت حريصاً على أن لا تنتبه، أدرت رأسي للاتّجاه العكسي، وظللت أديره في كلّ الاتّجاهات، حتى اختفت النساء من أمامي. لا أظنّني سأعود إلى هذا الحيّ مرّة أخرى، الآن لا أملك فيه أيّ ذكريات، وما كان ذكريات جديرة باستعادتها، أطاحته الحفّارات الضخمة. بالنسبة للتائه، ليعش بسلام وسط أمّه وإخوته، أو ليمت بسلام إن كان مات، وهذا شيء متوقّع في حالته. ولد يتآكل يومياً، بلا أيّ لمسة إبداعية في التآكل، وإن فرّ مرّة أخرى، وهذا شيء قد يحدث أيضاً، فقطعاً سيعود إلى بيت عبد العال، وإلى الشارع.

24

أول مرّة أنتبه لوجود أشياء غريبة في بيتي، غالباً لا تخصّني. كان صباح الاحتفال السنوي بانقلاب 25 مايو، الذي سُمّي ثورة، وتجرّأ كثير من المؤرّخين على وصفه بالعلامة المضيئة في تاريخ البلاد. لم أكن مهتمّاً بالاحتفال الـذي سيُقام في ميدان الحرّية، وسط العاصمة، ويحضره الرئيس في العادة، مدجّجاً بكلّ ما يمكن التدجّج به من رتب ونياشين، ومشيات بعضها في خيلاء، وبعضها في أكثر من الخيلاء، وعبارات ركيكة في الغالب سيتحدّث بها، وستُعدّ من عيون الخطابات الثورية. لكنّ أبناء أختي نفيسة الثلاثة، الذين كانوا في أعمار يستهويها التشنّج العسكري، ويرقّصها التسرّع المستفحل في اتّخاذ القرارات، جاؤوني مع أمّهم قبل ذلك بأيّام، وطلبوا منّي أن آخذهم إلى ميدان الاحتفال، ولم أستطع أن أرفض. كان والدهم عاملاً في محطّة بنزين، ولديه مناوبة عمل في ذلك اليوم.

فتحت درجاً في خزانتي الخشبية داخل غرفة النوم، أحتفظ فيه عادة بأشياء صغيرة قد تكون مهمّة وقد تكون غير مهمّة، مثل الإبر والخيوط والمحافظ الجلدية وقلّامات الأظفار وبعض العملات المعدنية، وربّما علبة أناناس أو فواكه مشكّلة أو أقلام حبر من تلك

التي تباع على الأرصفة، قد أحتاج إليها في كتابة شيء. كنت أبحث عن مشط صغير أستخدمه أحياناً في تسوية الشارب، حين لمحت محفظة جلد فاخرة لم تكن تخصّني أبداً، كانت من ماركة مونوغرام التي لم أسمع بها من قبل، جلدها مقلّم وناعم، وبها جيوب عديدة تستوعب كلّ ترّهات الكمال المادّي. التقطتها، قلّبتها بين يديّ لدقائق، شممت رائحتها فبدت لي رائحة خبز طازج، أو رائحة عرق نزّ من جلد معطّر. فتّشت جيوبها ولم يكن ثمّة شيء، لا نقود ولا أوراق، ولا صورة من تلك الصور التذكارية التي دائماً ما توجد في المحفظات. وقفت حائراً أفكّر في احتمال أن تكون محفظتي، وأنّها هديّة من صديق عزيز، ثمّ تذكّرت أنّه ليس لي أيّ صديق عزيز منذ سنوات طويلة، وصديقي الوحيد الباقي، سعد نزوة، كان فقيراً، ويسكن في حيّ بلا اسم وتزوّج بجدّة، غالباً لاستحالة أن يعثر على خيار آخر، وحتى هذا لم يعد بالصديق المقرّب من يوم حدّثني عن خطيئة سميّة رمضان. فكّرت في أنّها أمانة وضعها شخص عندي، وأيضاً لم أعثر على أحد يمكن أن يضع أمانة بهذا الترف عندي. أخيراً استقرّ تتبّعي على اعتبارها من ذكريات أيّام المرحاض الثمانية التي تعذّبت فيها كثيراً، والتي أدخلت إلى بيتي عشرات الأشخاص الذين لا أعرفهم. لكن من وضعها في الخزانة؟ لا يهمّ، المهمّ أنّ مصدرها معروف الآن. أغلقت الدرج، وذهبت إلى الاحتفال مصطحباً أبناء أختي، وكان احتفالاً عادياً، أريقت فيه الكثير من حروف العطف والجرّ والضمائر المفضوحة والمستترة، ولم يخرج الشعب المحتفل سوى بخبرين سعيدين، تبرّع بهما الرئيس في نهاية خطابه:

– سنلزم كلّ الأغنياء في البلاد بإقامة مظلّات في محطّات الحافلات، دعماً لراحة أبناء الشعب.

– سننشئ توسعة لمقابر البكري، وحمد النيل، بحيث يعثر كلّ ميّت على مكان مريح، يُدفن فيه.

كانا خبرين مهمّين فعلاً، صفّق لهما الناس كثيراً، وشخصياً أحسست بغثيان وبرغبة في التقيّؤ، لكنّي ضغطت على نفسي وانتظرت حتى انتهى الاحتفال وخرجنا. كان أبناء أختي يلوّحون بمسدّسات من البلاستيك أهديتها لهم، يقولون سنلزم، سننشئ، سنقاتل، سنعمل، ويتبادلون التحايا العسكرية بجدّية كبيرة.

في يوم آخر، كنت أستمع إلى إذاعة «بي بي سي»، وكان ثمّة تقرير عن مغنّية إنجليزية اسمها جوانا، كانت في الأصل رجلاً اسمه جون، وتحوّل بعد صراعات مع المجتمع، والكنائس، والمقام البابوي، وبعد عمليات عديدة أجريت له في الصدر، والبطن، والمنطقة التناسلية، إلى امرأة ترتدي التنانير القصيرة والبلوزات التي تحمل عبء إظهار المفاتن، ويمكن أن تواعد رجالاً، وأن تتزوّج أيضاً إن أرادت. لم أحسّ بأيّ تفاعل، إيجابياً كان أو سلبياً، تجاه المغنّية تلك، اعتبرتها ظاهرة جديرة بدراسة أسبابها، وبالطبع لا بدّ أنّ هناك من يدرسها فعلاً.

فجأة لاحظت وأنا أنظر إلى الراديو الموجود على رفّ في الصالة وجود فرشاة أسنان صفراء وسلسلة مفاتيح موضوعة بجانبها، مربوط فيها مفتاح متوسّط الحجم. نهضت معتلّاً من مقعدي المكسور الظهر، الذي أفضّل التأرجح به، وتناولت الفرشاة والسلسلة. الفرشاة لا تخصّني أبداً، لا تخصّ أختي نفيسة التي تأتي أحياناً وأعرف يقيناً أنّها تملك فرشاة أسنان بيضاء من إنتاج بداية الستينيات لم تغيّرها أبداً، تتفاءل بها وتقول إنّها حافظت على أسنانها كلّ هذه المدّة، وأنا لديّ ثلاث، كلّها باللون الأزرق، وكلّها داخل الحمّام. ركضت إلى هناك، وعثرت عليها نظيفة على رفّها المعتاد بجانب إصبع من معجون

كلولينوس. سلسلة المفاتيح ليست لي، أنا أربط مفاتيحي بخيط بلاستيكي، ولم يحدث أن اقتنيت سلسلة، هو باب واحد أدخل به البيت، ومفاتيح ما بقي من أبواب البيت توجد داخله، لا أحملها معي. لمن هذه التفاهات الصغيرة؟ حاولت أن أدخل المفتاح في كلّ قفل متاح في البيت بما في ذلك أقفال الحمّام والمطبخ، والمخزن الصغير الملحق بالمطبخ، ولم يدخل أيّ قفل. ذهبت به إلى الباب الخارجي، برغم يقيني أنّه أصغر من أن يُستخدم هناك، وأيضاً لم يعمل، عدت إلى صالتي، رميته حيث كان مع فرشاة الأسنان، وعدت إلى تقرير الـ«بي بي سي» عن جوانا، وعالمها الجديد الذي تقسم بأنّه أكثر بهجة وتسامحاً من عالم الرجال الذي هجرته. الفرشاة والسلسلة أيضاً قد تكونان من بقايا غزوة المرحاض الجسيمة، ولم أنتبه لذلك طيلة هذه الشهور. للحظة تذكّرت التائه وعبد العال، هذان المغموران كانا صديقين أدخلتهما حياتي أخيراً، وأصبحا يدخلان بيتي ويخرجان منه متى ما أرادا، ومن المحتمل أن تكون الفرشاة والسلسلة لهما. ارتديت ملابس يمكن الظهور بها في الشارع على عجل. كان بيت عبد العال كما هو، بيتاً مضعضعاً، مهدّم الحوائط، ودائماً ثمّة أغنام ودجاجات شقيّة تضجّ داخله، وكلاب مدرّبة على الوسخ تسعى للتناسل في حوشه الصغير. كان بلا أثاث تقريباً، هي عدّة أسرّة من الحبال غالباً مرتخية، مشتّتة هنا وهناك، وأكواب قليلة، وصحون قليلة، وقلّة للماء، وملابس محدودة داخل حقيبة مهترئة، وباستثناء الطبل المشدود والطار اللامع الموضوعين على طاولة صغيرة أمام السرير الذي يرقد عليه عادة، لا يوجد ما يوحي بأيّ إبداع أو حتى حياة.

كان عبد العال مستلقياً على سريره يدخّن بإتقان، دخان من فمه، دخان من أنفه، وأتخيّل دخاناً ينزّ من عينيه أيضاً. نهض ولاحظت

أنّ إحدى ساقي السرير الخشبي انثنت للداخل، انحنى وعدّلها ثمّ وقف يواجهني، وأيضاً لا أعرف الفرق بين أنفاسه ودخان سيجارته:

مددت له السلسلة وفرشاة الأسنان:

– هذه لك أو للتائه؟

– لا.. لا..

قال بحزم من دون حتى أن يلمس ما قدّمته له:

– نحن نستخدم مساويك الأراك، ضغطاً للتكلفة، ولم يحدث أن استخدمنا فرشاة.

– والمفاتيح؟

– ليست لي، بيتي كما ترى تدخله من دون مفتاح، والتائه أصلاً ليس له بيت ليدخله أو يخرج منه.

عاد للجلوس على سرير الحبال وسقطت الساق المكسورة، فاهتزّ بالسرير الذي مال به. أتمنّى أحياناً تحت ضغط المبالاة والحزن لو استطعت أن أقنع شخصاً ما باستخدام هذا الرجل في حرفة نافعة مثل النجارة، أو الحدادة، أو ترقيع إطارات الدرّاجات. سأبحث عن ذلك. سأسأل سعد إن كان يحتاج إلى مساعد في نجر الأخشاب أو حزمها بالحبال. أخرجت من جيبي عدّة قروش معدنية وضعتها في يده اليمنى شبه الممتدّة لي وأنا أعرف أنّه سيركض فوراً إلى دكّان الحيّ ليحصل على سجائر. قلت:

– لديّ باميا وطماطم، أحضر رغيفاً وتعال.

لم يبدُ أنّه سمعني، كان حافياً يركض خارج البيت.

لكنّ ما عثرت عليه بعد ذلك في مطبخي كان صادماً فعلاً، وهزّني لكنّي تماسكت. كنت أغسل صحناً متّسخاً في الحوض، حين انتبهت فجأة إلى وجود خاتم فضّي كبير، فيه فاروصة زرقاء لامعة، موضوع بجوار الحوض، خاتم بدا لي مألوفاً، كأنّني شاهدته من قبل،

ويبدو أنّ شخصاً نزعه من إصبعه، وضعه هناك قبل أن يستخدم الحوض. أمسكت بالخاتم وجرّبته في أصابع يدي اليسرى الخمسة. كان واسعاً، ولا يمكن أن يكون خاتمي، كان واسعاً حتى حين وضعته في أصابع قدمي، ليس بنيّة التقليل من قيمته، ولكن بنيّة التأكّد أكثر، أنّ هذا الخاتم لن يكون لي أبداً، وددت لو كان يتحدّث لأسأله، وتلك بالطبع أمنية بائسة. رميته داخل الدرج الخشبي مع ما عثرت عليه هناك من قبل، وبدا هاجس كبير يتحدّاني، يختبر صمودي بتلك الافتراضات التي أفترضها في كلّ مرّة حين أعثر على شيء غريب، أنّه من بقايا غزو الغرباء أيّام المرحاض. الهاجس كان ملحّاً، عدت للدرج مرّة أخرى، أخرجت المحفظة، وسلسلة المفاتيح، والخاتم، واحتكّت يدي في القاع بقلم ذهبي من ماركة باركر المعروفة، هو أيضاً لم يكن لي. وضعت تلك المقتنيات على طاولة أمامي، وبدأت أقرأ ما يمكن أن يكون مختبئاً فيها، وتوصّلت إلى نتيجة صُعقت لها...

هل يُعقَل؟ هل يمكن أن يكون الأمر كذلك؟ نهضت مذعوراً، دخلت غرفة نومي التي أعرف تفاصيلها جيّداً، كنت أنوي ارتداء ملابسي والخروج إلى مكان ما، لأستشير شخصاً أو جماداً في مكان ليس هنا، حين تعثّرت بشيء ضخم كان ملاصقاً للسرير، حيث أنام. نظرت إليه، كان حذاءً جلدياً ضخماً، قياس ٤٧، مفصّلاً محلّياً، وقد نُقشت عليه في الداخل عبارة «مزمل وولده للمنتوجات الجلدية». أعرف ذلك البائع، وأعرف شيئاً آخر أيضاً، أنّني عالق في مأساة لا أعرف إن كنت سأستطيع تجاوزها أم لا. ارتديت ملابس الخروج على عجل، وضعت الحذاء مع بقيّة الأغراض في كيس كبير، ربطته بخيط سميك، وحملته معي. كنت أتلفّت في الصالة، أدخل غرفتي والغرفة الأخرى، وأظنّني رفعت اللحافين، نظرت تحت السريرين، وتحت الكنبة الكبيرة في الصالة، وربّما أكون هززت المقعد المكسور

الظهر من دون أن أجلس فيه. خرجت وأغلقت باب بيتي، وما أزال أتوقّع شرّاً ما رابضاً في إحدى الدقائق التي أعيشها الآن قبل أن أذهب بعيداً. الآن أتذكّر أنّ غلوريا تحدّثت عن سرّ تحمله. تُرى هل يتعلّق بي وببيتي؟ احتمال بعيد طبعاً، لكن في مثل هذه الأمور غير المألوفة، يبدو كلّ شيء قابلاً لأن يصبح غير ما هو عليه. اكتشفت أنّني ألهث، وثمّة عرق ممتلئ بالهواجس، ينبض في رقبتي.

25

كان الفيلد مارشال إسحق موجوداً أمام عربته، يمسك بيده قطّة بيضاء حديثة الولادة، كان صوتها واهناً جدّاً، وهي تحاول بثّه، بينما المارشال يعمل على طليها بلون أسود. توقّفت أمامه أحاول العثور على أنفاسي المضطربة، ووددت أن أسأله، لماذا يطلي قطّة بيضاء بالأسود، ولم أسأل، كنت أعرف أن لا إجابة سأحصل عليها، إنّها حكايات روتينية عند مرضى الفصام كلّهم، أن يقترفوا كلّ ما يمكن أن لا يُقترف، بدعوى أنّه الكمال المنشود. وكان أحد أقاربي مجنوناً، ووصل في سعيه للكمال المنشود أن حوّل أخته الصغرى إلى سلعة غذائية، وعرضها للبيع في سوق الخضروات. كان المارشال قد أنهى طلي القطّة بالفعل، وقف شامخاً وعنيداً، يحرّك عينيه في المكان، ثمّ وضعها بين الأغراض الأخرى، وألصق عليها ورقة مكتوباً عليها: «عرض خاص – جنيهان فقط».

كان باب سعد نزوة مغلقاً، وهذا شيء متوقع في بيت تقيم فيه أسرة الآن، وليس بيت عازب أخرق كما كان في الماضي، وقد انتبهت إلى أنّ الباب الخشبي القديم قد استُبدل بواحد جديد من الحديد القويّ، عارٍ بلا طلاء. خبطت على الباب بيدي اليمنى خبطات

متتالية، وأحسّ بثقل الكيس الذي يحتوي على الأغراض التي لممتها من بيتي، ويتأرجح على يدي اليسرى. كانت فترة هلع ووسوسة عالية قد مرّت قبل أن ينفتح الباب، وأجد أمامي واحداً من الشابّين اللذين أعرفهما، ولا أفرّق بينهما، القسّيس وأبراموشا.

– مرحباً.

قال الذي خلته القسّيس.

– مرحباً يا قسّيس.

ابتسم، كان هو القسّيس، ولأول مرّة أستطيع التعرّف إليه، ولا بدّ من أنّ ذلك ناتج من اضطراب الهرمونات في دمي، وأعرف أنّ اضطراب الهرمونات قد يعدّل بعض المسارات، بالرغم من إضعاف مسارات أخرى داخل الجسم، الهرمونات النسائية مثلاً، بعضها يكسب النعومة والرقة، والعنفوان، وممكن جدّاً أن يسبّب أوراماً، أو تشنّجات أو انعداماً تامّاً للرغبة في أيّ شيء.

– هل سعد موجود؟

– لا.. الأستاذ سعد ترك البيت وانتقل إلى مكان آخر، أنا أقيم فيه الآن مع زوجتي.

– أنت تزوّجت؟

– نعم.

قال بفخر، ورأسه مرفوع إلى أعلى مكان، وعيناه تنظران إلى أفق واسع بعيد جدّاً:

– تزوّجت هبة الله، شقيقة أبراموشا، وهو تزوّج هبة الله شقيقتي.

– هبة الله مرّتين؟

– نعم، هل لديك اعتراض؟

لم يكن لديّ اعتراض بكلّ تأكيد، ولن يكون لديّ اعتراض في شأن لا يخصّني. أحتاج إلى سعد نزوة فوراً.

– أين أعثر على سعد؟

– ادفع.

مدّ القسّيس يده إليّ، في الحقيقة، مدّها إلى الكيس المتخم بالحيرة المعلّق بيدي اليسرى، لكنّي منعت يده من الوصول إليه، أدخلت يدي في جيبي، أخرجت خمسة جنيهات، قديمة، ومنطفئة، ومددتها له. قلّبها بعينيه قليلاً، وبدا غير متأكّد من صلاحيتها للتداول، لكنّه حشرها داخل شعره المنكوش وقال:

– من أين حصلت عليها؟ هل ورثتها عن جدّك السابع عشر؟

لم أسترح لسخريته، لكن لا يهمّ. سرت خلفه في حارات حيّ بلا اسم، نغطس بأقدامنا في البرك الراكدة، ونصارع المطبّات والحفر، والذباب المشحون بالمقت والقذارة، حتى وصلنا إلى الطرف الآخر للحيّ، حيث الحياة بدت أفضل، والناس أكثر نظافة، وتعالياً، وثمّة سيّارات صغيرة، تتهادى هناك، ودرّاجات، ومحالّ للبقالة، وترقيع الإطارات والغسيل والتشحيم، وفي وسط ذلك متجر من ثلاثة أبواب، كُتب عليه: «نزوة للأخشاب والتجارة».

أمسك القسّيس برقبتي بغتة، وجّهها إلى اللافتة، واستدار عائداً، كنت أحسّ بما يشبه الدوار، وكان هو يركض، وأرى قدميه طويلتين، وجافّتين، تخوضان الضحالة بكلّ رشاقة وسعة صدر.

– ما رأيك؟

قلت بعد أن صافحت صديقي القديم، وجلست على مقعد أمامه، وحكيت له وحكى. ثمّ أخرجت متعلقات إسماعيل خاتم من الكيس وأنا أرتجف، رصصتها أمامه على طاولة خشبية: المحفظة، فرشاة الأسنان، الخاتم، والقلم، والحذاء المفصّل عند مزمل. لم أكن

قد ركزت جيّداً على قصّته مع التجارة والزوجة السعيدة، وبداية الازدهار التي جعلته ينتقل إلى مكان أفضل، قطعاً سيتركه يوماً إلى مكان جديد في حيّ آخر لديه اسم على الأقلّ.

– رأيي أنّ إسماعيل كان في بيتك.

– بيتي أنا؟

– طبعاً.

– لكن كيف؟

– لا أعرف، لكنّه كان في بيتك، بإرادته أو بغير إرادته، بعلمك أو بغير علمك.

– لا أستوعب.

– يجب أن تستوعب، وتعرف أيضاً أنّك ستكون موضع شكّ كبير إن حدث شيء للرجل. حتى الآن يظنّون أنّه ذهب إلى الأقاليم مع امرأة سحرته، ماذا لو تعدّل الظنّ وأصبح بدلاً من ذلك: ذهب إلى بيت موظّف عنده لسبب غير معروف، ولم يخرج من هناك؟

ارتبكت. كان سعد يحاول توريطي، يتّهمني باختطاف إسماعيل، يفترض حدثاً ما، جرت طقوسه في بيتي، ربّما انتهى بموت الرجل، ولا أستطيع أن أستخلص حكمة أو طرحاً جذاباً في افتراضاته.

– ولماذا أؤذيه؟ لا شيء بيني وبينه.

– لم أقل إنّك آذيته، أقول دخل بيتك ولم يخرج.

– سيّان، لم يخرج لأنّه ميت. أليس كذلك؟ قل لي فقط ما الدافع؟ وأين وضعت جثّته؟ وهل أنا قاتل؟

لم يردّ سعد. نهض من مقعده، وتحدّث مع زبون كان يبحث عن خشب ملائم لإنشاء مصيدة للثعالب، وسمعته يقول للزبون: «لم نسمع أنّ مصائد الثعالب تُصنع من الخشب»، ليغادر هذا الأخير وعلى فمه ابتسامة.

عاد، جلس على مقعده وقال:

– ربّما أحد الذين تعرفهم فعل ذلك، تلك المرأة المجنونة سلوى بطرس، أو الضائعان اللذان تصاحبهما. فكّر جيّداً في الأمر، واذهب إلى الشاويش كمال الدين، سلّمه هذه المقتنيات، سمعت أنّه كان يعمل على هذه القضيّة.

لم أحبّ تلك الجلسة مع سعد، الذي جئت طامحاً أن أعثر على رأي جيّد عنده. كانت بالنسبة إليّ من الجلسات المرعبة، لأنّه وضعني رأساً على قائمة ربّما ينبش فيها كمال الدين الشطة، ويختصرها إلى فرد واحد هو أنا. لقد كانت الأشياء موزّعة في بيتي، وربّما يوجد غيرها لم أعثر عليه بعد، وأنا مندهش حقيقة أنّني لم أنتبه إلى تلك الغرابة من قبل، أو لعلّها غرابة جديدة، بُذرت في بيتي في اليومين الماضيين. لقد تخلّى سعد عنّي، هذا واضح، ولكن أنا تخلّيت عنه أيضاً من قبل، وما كان من المفترض أن آتي اليوم. اهتززت، اهتزّت ثوابتي كلّها، اهتزّت حتى الأشياء غير القابلة للاهتزاز التي أعرفها، مثل أنّني كائن حيّ، وأنّني موظّف في إدارة الحكومات المحلّية، وأنّ هناك سكرتيرة جميلة جدّاً حيث أعمل كان اسمها مسك الدار وتحوّلت بإيحاء منّي إلى غلوريا، لمذا تذكّرت غلوريا الآن؟ لماذا تخيّلت أنّها ربّما داخل متاهة محكمة من متاهات الصحفي البوهيمي الذي أصبح مديراً لإدارتنا؟ غير مهمّ، غير مهمّ فعلاً، والذي يهمّني الآن أن أخطو بحذر إلى بيتي، أن أدقق حتى في أنفاسي بحثاً عن تلوّث محتمل. نهضت من مقعدي، كانت الأخشاب مكوّمة في كلّ ركن، وتصل قاماتها إلى السقف، اتّجهت إلى الخارج، احتككت بالحاجّة زوجة سعد عند الباب، ونسيت أن أحيّيها، بينما حيّتني هي ووقفت تطالعني، منتظرةً أن أردّ التحيّة. في محطّة الباصات، صادفت أبراموشا وعرفت أنّه أبراموشا معتمداً على خلل

الهرمونات داخلي. كانت بصحبته فتاة ربّما تحتاج إلى الكثير من العناية، لتصبح فتاة، كانت قصيرة، وكئيبة، ولها شامة بارزة أسفل عينها اليسرى. لمحني ولم يبدُ على وجهه أنّه لمحني، كان هذا أسوأ ما في الأمر، أن أكون مبهماً وسخيفاً في نظر مجرم ضائع مثل أبراموشا. وأنا أغادر حيّ بلا اسم خطر لي فجأة أنّ سعد قد يفضحني بناءً على نظريته في تورّطي، ويجلب لي الشاويش وغيره من رجال الشرطة حتى بيتي، ثمّ استبعدت ذلك الخاطر فوراً، ألغيته تماماً، سعد لن يفعل ذلك، هو أدلى بدلوه، وعاد إلى أخشابه، وغالباً نسي ما أخبرته به. من هذه الناحية لا مشكلة، لا مشكلة أبداً.

26

قلت لعبد العال: «تعال ساعدني في تنظيم البيت يا صديق».

كان مخدّراً بصورة مؤسفة، ملقىً على سريره المرتخي في حوش البيت، ورائحة سيجارته المحرّمة تتهادى في الهواء، مختلطةً بأنفاسه القذرة. لم يكن يودّ أن ينهض، كان ينظر إلى ما بقي من السيجارة المشتعلة في يده، نظرات هيام مذهول:

– لا أستطيع يا سيد مممممم، خخخخ..، ففففف أحتاج إلى سنة شمسية، وليالٍ قمرية، وتحف مسروقة وكركبات مكركبة.

ضحك، ضحك بجنون حتى خلته سيموت بأزمة قلبية من الضحك. صمت قليلاً، وبدأ يحكّ رأسه وأذنيه، كأنّه يفكّر في شيء. ثمّ ضحك مرّة أخرى، وأرى عينيه وقد خرجتا من محجريهما، ولسانه وقد تدلّى، واستفرغ ما خلته قبائل من الضحك المتّصل. جررته من يديه وهو يضحك ورميته داخل حمّامه القذر، كانت مواسير المياه في بيته متوقفة عن الضخّ، قطعاً لعدم دفعه الفواتير، لكنّي عثرت على جردل مملوء بالماء حتى منتصفه، دلقته عليه، حتى تحرّر من الهستيريا، وبدا ضئيلاً وغبيّاً، وإحدى عينيه منطفئة تماماً. جررته مرّة أخرى، ألقيته في سريره، وغطّيته بلحاف ثقيل كان في المكان.

عبد العال هذا أيضاً من التوابع المزرية لهذا الشارع، لا أريد أن أهتمّ به بعد اليوم، لا أريد أن أرى جوعه وعريه وآثامه مرّة أخرى، وحتى وعدي لنفسي بأن أعثر له على عمل، لن أنفّذه، هذا ليس طبع عامل يمكن أن ينتج. سأساعد نفسي بنفسي في هذه المعضلة، وإن نجوت فسأترك هذا المكان إلى بقعة أخرى ليس فيها معالجة روحية منحرفة، أو امرأة عجوز مصابة بمرض الأمنيات، أو مغنّون بلا مجد يتصعلكون في بيتي ويأخذون من جيبي، أو سمين أشيب يركض ويمرّغ قدميه في التراب ممجّداً للسلطة. التائه على الأقلّ لديه أهل، جاؤوا واستلّوه من الضياع وذهبوا، لكن من يستلّ رجلاً في التاسعة والخمسين مثل عبد العال، عاش حياة كاملة من الضياع، وهو قابل ليعيش ضعفها؟

مرّة سألته عن عائلته، ولم أخرج بشيء. قال بجلافة:

– لن أجيب عن أسئلة الشرطة.

اغتظت في ذلك اليوم:

– وهل أنا شرطي؟

– أنت لا.. لكن أسئلتك نعم.

أحياناً أفكّر أنّه ليس كياناً بشرياً خالصاً، ربّما هو خليط من الإنس والجنّ، أحياناً أخرى أفكّر أنّه غير موجود، وأنّني أتخيّله موجوداً، وأعود لأستحي من تصوّراتي. عبد العال فاشل مغمور، موجود معي وبجانبي ومن حولي، ويقتات من تعاطفي، وقروش محفظتي، شئت أم أبيت.

في البيت، لم أكتفِ بزحزحة الأسرّة ونبش كلّ ما في الخزانة التي في غرفة نومي والخزائن التي في المطبخ، ودراسته بدقة لمعرفة إن كان يخصّني أم يخصّ إسماعيل. ولسوء حظّي، عثرت على قرائن أخرى تدلّ على أنّ إسماعيل أقام في بيتي ذات يوم، لكن متى؟ لا أعرف، وكيف؟ لا أعرف. زجاجة العطر هذه له بالتأكيد، فيها بذخ

وشبع، واستفزاز، ماكينة الحلاقة الجديدة هذه أيضاً له، وكذلك ثلاث شمّاعات من الخشب لا تشبه ما أملكه من شمّاعات الحديد الصدئ.
إسماعيل وجد هنا ذات يوم، هذا شيء عليّ أن أفسّره أولاً لنفسي، ثمّ أفسره للشاويش الشطة وغيره من رجال الشرطة، إن نزح تقصّيهم للقضيّة ووصل عند بابي. فكّرت أولاً في الذهاب للشاويش وإخباره، وأن أطلب منه إزالة الغموض عن تلك المسألة إن كان يستطيع، لكنّي خفت جدّاً، فالشاويش الشطة وغيره من المدرّبين على امتصاص الشكوك وتحويلها إلى يقين في معظم الحالات لن يقف بلا حراك أمام ما سيخطر بباله في تلك اللحظة. فكّرت في التخلّص من تلك الأشياء، في دفنها في مكان ما بعيد، بحيث لن يعثر عليها أحد، وأظنّ أنّ ذلك التفكير أراحني كثيراً، سأقوم بالتدقيق مرّة أخرى بحيث لا أنسى شيئاً، ثمّ أذهب بها إلى المكان الذي أجده ملائماً. احتفلت بتلك اللحظة الجيّدة بأن جلست على مقعدي المكسور، واهتززت به ساعة، ثمّ نهضت. أفضل مكان لدسّ الأسرار هو المقابر، وأيضاً توجد الصحراء التي لن يحاول أحد نبشها، أو حتى يفكّر في ذلك. لكن كيف أصل إلى الصحراء وأنا لا أملك سيّارة، ولا أستطيع استئجار واحدة لأنّ ذلك يعني إشراك طرف ثانٍ في السرّ، ولأنّ ذلك الطرف الثاني، أي السائق، لن يسكت عن رجلٍ رآه يدفن سرّاً هناك ويعود معه. المقبرة أسهل، لكن أيضاً للمقابر حرّاس جشعون، ومشرّدون يسكنون هناك ويتحوّلون في الليالي المظلمة إلى أشباح تتقصّى الموت والحياة معاً، وتستفيد من أيّ خرق قد يحدث، مثل أن يتخلّص أحد من إثم، مثل أن يستيقظ نائم دُفن بوصفه ميتاً، ومثل أن يتحرّش معتوه بجثّة طريّة لامرأة، وأيضاً بعض المسرحيات المرعبة التي يمثّلها فتيان أشقياء بغرض التسلية وتنتهي بمآسٍ ما. جُلت في بيتي، أفكّر وأرى أغراض إسماعيل ملتمّة في الكيس الكبير، وأودّ أن أسألها بصدق عن السبب

في وجودها في بيتي، وكيف حدث ذلك. كان ذهني قد اختلّ بكلّ تأكيد، كأنّي أصبحت آخر. فكّرت للحظة، ربّما أنا إسماعيل، وليس علي صلاح الذي كان موظّفاً عنده. كانت لديّ مرآة ضخمة معلّقة في غرفة النوم، أغطّيها بملاءة سميكة حتى لا أضطرّ إلى متابعة علامات التقدّم في العمر. في كلّ لحظة وأنا أمرّ من أمامها، لديّ هاجس قديم أنّ المرايا أدوات قهر عظيمة، أكثر منها أدوات ترحيب وإطراء، وأنّ الوجوه السيّئة الحظّ هي التي تشتبك بانعكاسات المرايا بصورة مستمرّة. بالطبع النساء أكثر تفقّهاً في لعبة المرايا، ويستطعن بقليل من الأمل والحلم أن يتذوّقن البشاعة التي تظهرهنّ بها كما يتذوّقن أحلى وأجمل فاكهة. دخلت غرفة نومي، أزلت الملاءة عن المرآة، ووقفت أمامها أتأمّل نفسي. كان وجهي غريباً عنّي. إنّه ليس الوجه الذي اعتدت استخدامه في الحياة العامّة، والخاصّة أيضاً. ابتسمت ولم أعثر على ابتسامتي، كشّرت وأيضاً لم أعثر على تكشيرتي، ضحكت بصوت عالٍ، وسمعت صوتي، وخفت منه، لكن لا آثار ضحكة في المرآة، انحنيت إلى الأمام، التقطت شيئاً من الأرض من دون أن أنظر إليه، فقط تحسّسته بيدي، ورأيته بوضوح في المرآة: سكّين حمراء، ألقيتها سريعاً، ومددت بصري إلى حيث ألقيتها. كانت سكّيناً ملوّنة بدم جامد، غالباً سال منذ زمن طويل. فررت سريعاً من الغرفة ومن البيت، جلست على الدكّة الإسمنتية الملاصقة للباب، أحاول الاندماج في صخب الشارع، ونسيان أنّ ثمّة جريمة قد تكون تمّت في بيتي، ومجرماً غير معروف يملأ البيت بالأدلّة. كان الوقت مساءً، أرى سلوى التي اعتادت التسوّق في هذا الوقت من دكّان الحيّ، قادمة وسلّتها تبدو خفيفة، كان حوالي خمسة فتيان يتبعونها ويصفرون، ونساء غالباً لديهنّ مشاوير مؤجّلة، وأحلام مؤجّلة أيضاً، يتحرّكن ببطء، في المكان، ويتلفّتن. عبد العال لم يكن موجوداً، مؤكّد

أنّه لا يزال مخدّراً، وغائباً، والقاضي الذي يسكن هناك ويظهر نادراً قد ظهر الآن، كان ينتعل حذاءً رياضياً، ويحاول الركض في الشارع. جلست ساعة أتوقع أشياء كثيرة قد تحدث، ولا يحدث شيء... بعد قليل سيدخل الليل، ولم أصل حتى الآن إلى فكرة جيّدة.

فجأة توقفت سيّارة شرطة زرقاء اللون في الشارع قريباً من بيتي، وهبط منها الشاويش كمال الدين الشطة، واثنان من معاونيه، كانوا يرتدون الملابس العسكرية، ويحملون عصيّاً في أيديهم، وثمّة جرابات مؤكّد تحتوي على أسلحة تتدلّى من سراويلهم. ارتعبت بشدّة. بدأ فكّاي يرتعشان وأنفي يسيل، وهاجمني انتفاخ في البطن، وألم عميق في الخصية. هؤلاء جاؤوا من أجلي، ولكن لماذا من أجلي؟ أنا لم أفعل شيئاً، لم أقتل إسماعيل أو أيّ أحد آخر، وتلك السكّين الملوّثة، لست من لوّثها، والأشياء الأخرى، لا أعرف من أين جاءت. كنت أتحدّث إلى نفسي، والعسكريون توقّفوا أمامي، وأسمع الشاويش يحدّثني:

– مرحباً سيّد علي، هل ما زلت غاضباً منّا بسبب الطفل نميري؟ أراك تحدّث نفسك، هل تحاول أن تحفظ قصيدة لإيليا أبو ماضي؟

كان يسخر بالطبع، واستغربت أنّه سمع بشاعر اسمه إيليا أبو ماضي، وهذا النمط من الناس غالباً لا يسمع إلّا بأسماء رؤسائه، أو أسماء يستطيع أن ينكّل بأصحابها.

– لا... لا.

رددت وسمعت صوتي مخنوقاً:

– كنت أراجع بعض القوانين الخاصّة بتطوير القرى في ذهني.

– بالتوفيق. القرى تحتاج إليكم يا معشر الشباب.

تحرّكوا من أمامي، وقفوا أمام البيت الملاصق لبيتي من جهة اليمين، وكنت أعتقد أنّه خالٍ لأنّني لم أر أحداً يدخله أو يخرج منه منذ حوالي شهرين، بعد أن انتقل ساكنوه إلى مكان آخر. مهما يكن، فالأمر لا يهمّني، وما داموا لا يقصدونني، فليكن ما يكون. أردت أن أدخل بيتي، لكن تذكّرت ما بداخله، فاستمررت جالساً، ربّما يستيقظ عبد العال من غيبوبته، ويأتي، وأجلس معه حتى الصباح، ربّما يتذكّرني سعد نزوة فجأة ويأتي يتفقدني، ربّما يفرّ التائه من أمّه ويعود، ربّما يخطر على بال الشاويش الشطة بعد انتهاء مهمّته أن يعرّج عليّ ويصادقني، وأحدّثه بما لديّ حديث صديقٍ لصديق، أو ربّما تدعوني سلوى لأشرب قهوة في بيتها، وهذه المرّة سأشرب. فجأة استيقظت من تأمّلاتي على صوت صراخ حادّ، وسباب بكلمات غاية في الركاكة والفحش. كان الشاويش يمسك بفتاة صغيرة، قميصها مفتوح حتى السرّة مبيّناً صدراً صغيراً تحت حمّالة بيضاء، وتضع في أذنيها قرطين لامعين بينما وشم لم أتبيّن هويّته منحوت أعلى صدرها من ناحية اليمين. كانت تحاول التملّص من يد الشاويش، بينما العسكريان الآخران يجرّان رجلاً مسنّاً، عارياً تقريباً لولا ملاءة خفيفة وردية اللون تغطّي نصفه الأسفل. ركضت نحو المشهد، ولم أفاجأ حين تعرّفت إلى الفتاة. كانت ليلى، مراهقة حيّ المستشفى.

– هل هي قضيّة دعارة؟

سألت وصوتي ما يزال مخنوقاً.

ردّ الشاويش:

– الدعارة ليست مشكلة أيّها الشاب، المشكلة في إغواء فتاة قاصر.

وأضاف:

– بالمناسبة، عثرنا على صاحب السيّارة البيتلز الصفراء المتروكة عند محطّة السكّة الحديد، كانت سيّارة إسماعيل فعلاً، لكنّه باعها قبل اختفائه بأيّام لشخص آخر أوقفها هناك وسافر إلى الأقاليم.

إذن سقطت نظرية المرأة المتبوعة إلى الريف بجدارة، وقطعاً ستنفتح نظرية جديدة، هي نظرية الاختفاء في حيّ في المدينة، في بيت أحد قد يكون يحمل ضغينة ما استثمرها في نحر مديره، فرضية سعد نزوة التي لم أحبّها. أنا؟ معقول أنا؟ أسرعت بالعودة إلى بيتي قبل أن تخطر النظرية الجديدة على ذهن الشاويش، أو يتمّ تفعيلها إن كانت موجودة في الذهن منذ زمن، وأسقط من دون أن أكون مستعدّاً. في بيتي سأنحت ذهني بحثاً عن حلّ. عليّ أن أعثر على مكان آمن أتخلّص فيه من سخافات إسماعيل التي استعمرت بيتي من دون أن أعرف أصلاً كيف دخلته. عليّ أن أفعل ذلك حالاً. كنت أسمع صوت سيّارة الشرطة يتضاءل تدريجاً، لكنّ أنفاسي ما تزال متسارعة.

كان الفجر قد بدأ يطلّ واعداً للبعض، وقاسياً للبعض الآخر، حين تذكّرت فجأة أنّني أملك مخابئ للأسرار لا يملكها أحد غيري. أملك المقبرة والصحراء بالفعل من دون أن أغادر بيتي، ذلك الحوش الخلفي الواسع الذي لا يتناسب مع مساحة البيت، والذي لا أذكر متى زرته آخر مرّة، ولكن مؤكّد منذ أربع أو خمس سنوات، كانت فيه أغراض كثيرة مهملة، وجدتها في البيت حين سكنت، ورميتها هناك، مؤكّد نبتت حشائش طفيلية عديدة وماتت، واخضرّ عشب أملس بالمطر، وذبل، مؤكّد توجد سلالات متعدّدة من الفئران والصراصير، توجد قطط، وتوجد آثار حتى لحيوانات مفترسة، مرّت بالمكان ذات

يوم. قبل عامين كما أذكر، أردت تفقّد تلك البقعة الغامضة في بيتي، ولم أعثر على مفتاح الباب الذي يفصلها عن البيت، وأقلعت عن الفكرة، الآن سأدخلها بمفتاح أو بغير مفتاح.

27

أول ما فعلته بعد أن خطرت فكرة الحوش الخلفي المهجور في ذهني هو أنّني قمت بحملة واسعة ربّما للمرّة الثالثة في بيتي، بحثاً عن شيء له علاقة باختفاء إسماعيل، شيء قد أكون أغفلته بالرغم من تأكّدي من أنّني لم أغفل شيئاً. أغلقت حنفيات الماء وفككتها للتأكّد من أن لا شيء داخل تجاويفها، أخرجت كلّ ما في الخزائن من ترف وفقر وغربلته، فتّشت في جيوب القمصان والسراويل، والدفاتر القديمة التي كانت فيها ديون للبعض وسدّدتها وتلك الحديثة التي لم أدوّن فيها شيئاً بعد، نفضت خزائن المطبخ وأدوات الطبخ فيه، أخرجت القطن المحشوّ في المقاعد والكنبة الكبيرة منذ زمن بعيد، وأعدت حشوه وإخراجه مرّة أخرى وحشوه، كنت في مصيدة لا أعرف إن كنت صنعتها لنفسي أم هناك من صنعها لي ووقف الآن يقهقه في مكان ما منتظراً سقوطي. عشرات المرّات فكّرت، ووقفت أمام المرآة الكبيرة في غرفة النوم، ومرآة أخرى في الحمّام، مرّات عدّة، أختبر ابتسامتي، وضحكتي، وتكشيرتي، أنزع ملابسي وأرتديها، أنزعها وأرتديها، أشمئزّ من عريي وعدم عريي، أخرج الأغراض التي جمعتها في الكيس الكبير، أبعثرها على سريري وأعيد لمّها من جديد، لم أكن

عابئاً بالزمن الذي يمرّ، وبأنّني أضعت يوماً من المفترض أن أكون فيه في عملي. سمعت نقراً على الباب مرّات عدّة، لم أستجب بالطبع، غالباً هو عبد العال، أفاق من نشوته المريضة جائعاً والآن يبحث عن شبع، أو ربّما يكون التائه عاد إلى الشارع بعد أن تخلّص من عناية أهله، أو سلوى بطرس تحاول الصيد في الماء العكر، وصراحة ليس عندي ماء للصيد فيه، لا عكر ولا صافٍ... كان يمكن أن أتصوّر أنّ من ينقر الباب هو الشاويش الشطة ومعه ضبّاط وعساكر، يتحاومون حول بيتي في انتظار خروجي. لكنّ الشرطة لا تنقر باب أحد وتنتظر، إنّهم يدخلون بأيّ طريقة تخطر على بالهم، وأمس دخلوا البيت الملاصق لي بجلافة شديدة، واستخلصوا فتاة مراهقة سقطت، ومسنّاً لن يرى الشمس مرّة أخرى على ما أعتقد.

عند الظهر، تجمّع عندي كيس آخر فيه صور قديمة لا أعرف لمن كانت ولا تلك الوجوه التي تملأها. وجوه كنت أعرفها أم لا؟ وجهي نفسه لم أستطع تمييزه. أيضاً كان في الكيس أقلام رصاص من ماركة ثري إتش الشفّافة، وكتب في المحاسبة والضرائب، وديوان شعر كان مصادفة لإيليا أبو ماضي الذي ذكره الشاويش كمال الدين، أيضاً كان في الكيس مخاط متيبّس، وعلبة مربّى من ماركة توباس، وتذكرة سفر بالقطار البطيء إلى الشمال، عليها اسم مطموس، غالباً هو اسم امرأة. كانت باختصار أشياء كثيرة تمثّل الحزن في أرقى صوره، الحزن الذي قد يكون حزني أو حزن إسماعيل أو حزن شخص آخر غير موجود في محيطي، وحطّت أشلاء حياته عندي بطريقة أو بأخرى.

حملت الكيسين الثقيلين، اتّجهت بهما إلى الباب الذي يفصل الحوش الخلفي عن بيتي، والذي سأضطرّ الآن لكسره لأنّني لم أعثر على مفتاحه. كان ثمّة ممرّ صغير يؤدّي إليه، عبرته باطمئنان، وأنا أشعر بالقرائن التي في يدي تحثّني على الإسراع. كنت متأكّداً من أن

لا أحد سيفكّر في هذا الحوش الذي لم أعرف ميزته إلّا الآن، وكنت دائماً أتساءل عن فائدة وجود حوش شاسع لبيت من غرفتين وصالة. وحتى لو فكر، فلن يعثر على شيء وسط تلك الفوضى المزمنة التي تعشّش فيه، فوضى تبعث على الخوف، لكنّي لست خائفاً... وقفت عند الباب، كان سميكاً ومغلقاً بإحكام، ولا بدّ من كسره من أجل الدخول، ولم يكن ثمّة وقت لفعل ذلك. رفعت الكيس الأول عالياً وألقيت به من أعلى الباب، ثمّ رفعت الآخر وألقيت به أيضاً. تنفّست أولاً باضطراب، ثمّ بحشرجة، وسقطت على وجهي.

كنت أحسّ بالظمأ، ثمّة قطّة سوداء تلحس قدمي، ثمّة أشخاص يتعثّرون في المشي وهم يحملون جسداً ثقيلاً يخرجون به من بيتي، ثمّة صفيحة زبالة تتعارك مع جردل مملوء بالماء، وعبر فتحة في اللاشعور، كنت أرى نفسي عارياً مغطّىً فقط بضوء شفّاف.

حين استيقظت، كنت أجلس على الدكّة الإسمنتية أمام بيتي، وكان الليل في منتصفه تقريباً. خطوات قليلة تمرّ قريباً منّي وصوت يلقي السلام بينما عربة مكشوفة بلون أزرق تتوقف فجأة أمام بيت سلوى، هبط منها الشاويش كمال الدين الشطة وعدد من معاونيه ومعهم رجل سمين أشيب، كانوا يحملون عصيّاً غليظة، وعلى جوانب سروايلهم تتدلى جرابات غالباً محشوّة بالأسلحة. لم يطرقوا الباب، لكنّهم أزالوه ودخلوا.

حرّاس الحزن — في عوالم تاج السرّ واقعٌ مغرقٌ في واقعيته وخيالٌ جانحٌ في تفلّته. هناك، في مساحة التناقضات الحادّة تلك، تتجاور المأساة مع الفكاهة الساخرة. هناك يُرمى حديثو الولادة في مكبّات الزبالة، لكن هناك أيضاً ترأف بهم وتلمّهم امرأة حاذقة هي ذاتها دوماً. هناك يقضي مراهق قبل تسلّمه حذاء «بيليه» الذي كان يحلم بانتعاله، بينما يتلقّف ذلك الحذاء ولدٌ لم يكن ليحلم به. هناك أيضاً تعالج عرّافة والدتها من مرض الأمنيات بينما يتساءل بطل الحكاية بجدّية عمّا إن كان هو من قتل المدير. كلّا، ليست سردية غير مترابطة. هي فقط مكثّفة، هي فقط نموذج مصغّر عن الحياة وشخوصها بمآسيهم وأفراحهم، ببراءتهم وخبثهم، بتنوّع نزعاتهم، وبحيرتهم الأبدية أمام المرايا...

«ينحو أمير تاج السرّ منحى الواقعية السحرية في كتابته، فيعيد للواقع شيئاً من سحره المفقود وللحكاية شيئاً من ألقها الغريب.»

— سلمان زين الدين

أمير تاج السرّ — روائي سوداني يعمل طبيباً. نال جائزة كتارا للرواية في دورتها الأولى عام 2015 عن «366»، ووصلت بعض عناوينه إلى القائمتين الطويلة والقصيرة في جوائز أدبية عربية مثل البوكر والشيخ زايد، وأجنبية مثل الجائزة العالمية للكتاب المترجم (عام 2017 بروايته «العطر الفرنسي»، وعام 2018 بروايته «إيبولا 76»). تُرجمت أعماله إلى عدّة لغات منها الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والفارسية والصينية. صدر له عن نوفل: «جزء مؤلم من حكاية» (2018)، «تاكيكارديا» (2019) التي وصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد للكتاب (دورة 2019-2020)، و«سيرة الوجع» (طبعة جديدة، 2019)، و«غضب وكنداكات» (2020). دخلت رواياته في المناهج الدراسية الثانوية الإماراتية والبريطانية والمغربية.

ISBN 978-614-469-962-1

نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان